البَابُ الأوَّل

الصعاليك

الفصل الأول

التعريف بالصعلكة

١

فى اللغة :

فى لسان العرب [١] : « الصُّعلوك : الفقير الذى لا مال له ؛ زاد الأزهرى ولا اعتماد . وقد تصعلك الرجلُ إذا كان كذلك . قال حاتم الطائى :

غَنينا زماناً بالتصعلك والغنى فكلاًّ سقاناه بكأسيهما الدهرُ

أى عشنا زماناً .

وتَصَعْلكت الإبلُ : خرجت أوبارها ، وانجردت ، وطرحتها .

ورجل مصعلك الرأس : مدوره .

ورجل مصعلك الرأس : صغيره ، وأنشد :

يخيِّل فى المرعى لهن بشخصه مُصَعلكُ أعلى قُلَّةِ الرأس نِقْنِقُ

وقال شمر : المصعلك من الأسنمة : الذى كأنما حَدْرَجْتَ أعلاه حدرجة ، كأنما صعلكت أسفله بيدك ، ثم مطلته صُعُداً أى رفعته على تلك الدملكة ، وتلك الاستدارة [٢] .

وقال الأصمعى فى قول أبى دؤاد يصف خيلا :

قد تَصَعْلكن فى الربيع وقدقَ رَّعَ جِلْدَ الفرائضِ الأَقدامُ

قال : تصعلكن : دققن ، وطار عفاؤها عنها ، والفريضة : موضع قدم الفارس .

وقال شمر : تصعلكت الإبل إذا دقت قوائمها من السمن ، وصعلكها البقل .

---

(١) مادة (صعلك) .

(٢) حدرج : فتل وأحكم . والدملكة : الاستدارة والملاسة والفتل .

وصعلك الثريدة : جعل لها رأساً ، وقيل : رفع رأسها .

والتصعلك : الفقر .

وصعاليك العرب : ذؤبانها . وكان عروة بن الورد يسمى عروة الصعاليك ، لأنه كان يجمع الفقراء فى حظيرة فيرزقهم مما يغنم » .

من هذا النص اللغوى الذى سجله ابن منظور فى لسان العرب ، والذى سجل مثله غيرُه من علماء اللغة فى معاجمهم ، نستطيع أن نتبين أصلا عامًّا للمادة تشترك فيه معانيها المختلفة ، وتدور حوله ، وهو — عندى — الضمور والانجراد[1] . ونستطيع فى سهولة ويسر أن نرد كل معانى المادة إلى هذا الأصل العام :

فالإبل تتصعلك إذا انجردت أوبارها وطرحتها .

والخيل تتصعلك إذا دقت وطار عفاؤها عنها .

والبقل يصعلك الإبل أى يسمنها ، وهذا السِّمَن يجعلها تطرح أوبارها وتتجرد منها .

والمصعلك من الأسنمة الذى يبدو كأنما فلت أعلاه وأضمرته .

وهو يصعلك الثريدة أى يجعل لها رأساً ، أو يرفع رأسها ، كأنما أضمر أعلاها .

وهو مُصَعْلك الرأس أى صغيره وضامره .

وهو يتصعلك أى يفتقر كأنما تجرد من ماله ، وبدا ضامراً بين الناس .

فالصعلكة إذن — فى مفهومها اللغوى — الفقر الذى يجرد الإنسان من

---

(١) نحن فى هذا نخالف ابن دريد فيما يذهب إليه من أن « أصل الصعلكة الفقر » (انظر جمهرة اللغة : باب ما جاء على « فعلول » ٣/٣٨٣ — وانظر أيضاً الاشتقاق / ١٧٠) ، ونرى أن الفقر ليس أصلا للمادة ، ولكنه الطور المعنوى فى معناها الذى يأتى بعد الطور الحسى . ويؤيدنا فيما نذهب إليه ما يراه ابن فارس من أن « الصاد والعين واللام أصيل يدل على صغر وانجراد » (انظر مقاييس اللغة ٣/٢٨٦) ، وهذه الحروف الثلاثة هى أصل مادة « صعلك » ، وبين المادتين تشابه فى معانيهما ، فالصعل : الصغير الرأس من الرجال والنعام ، وحمار صعل أى ذاهب الوبر .

ماله ، ويظهره ضامراً هزيلا بين أولئك الأغنياء المترفين الذين أتخمهم المال وسمنهم .

ولكن يبدو أن هذا المعنى لا يعبر عن المفهوم اللغوى للكلمة تعبيراً دقيقاً كاملا ، ولهذا نريد أن نقف وقفة أخرى عند تلك الزيادة التى أضافها الأزهرى إلى هذا المعنى اللغوى ، وهى قوله « ولا اعتماد » ، لنرى ماذا يستفيد المعنى منها ؟ وإلى أى مدى تحدد هذا المعنى وتكمله ؟ والمعنى اللغوى لهذه العبارة واضح ، فاعتمد على الشيء : توكأ أو اتكأ عليه ، واعتمد عليه فى كذا : اتكل عليه[1] . وعلى هذا نستطيع أن نقول إن الصعلوك فى اللغة هو الفقير الذى لا مال له يستعين به على أعباء الحياة ، ولا اعتماد له على شيء أو أحد يتكئ عليه أو يتكل عليه ليشق طريقه فيها ، ويعينه عليها ، حتى يسلك سبيله كما يسلكه سائر البشر الذين يتعاونون على الحياة ، ويواجهون مشكلاتها يداً واحدة . أو هو — بعبارة أخرى — الفقير الذى يواجه الحياة وحيداً ، وقد جردته من وسائل العيش فيها ، وسلبته كل ما يستطيع أن يعتمد عليه فى مواجهة مشكلاتها . فالمسألة إذن ليست فقراً فحسب ، ولكنها فقر يغلّق أبواب الحياة فى وجه صاحبه ، ويسد مسالكها أمامه .

هذا هو التعريف اللغوى للكلمة كما نراه فى ضوء هذه المحاولة اللغوية لفهم المادة . ونريد — بعد هذا — أن نتتبع هذه المادة فى الاستعمال الأدبى القديم فى العصر الذى ندرسه لنرى كيف دارت فيه ؟ وإلى أى مدى يطابق هذا الاستعمال معناها اللغوى كما سجله علماء اللغة أو يختلف عنه ؟

---

(١) لسان العرب : مادة (عمد) .

٢

فى الاستعمال الأدبى :

تردد هذه المادة فى أخبار العصر الجاهلى وشعره بصورة واسعة ، وتقابلنا كثيراً على ألسنة شعرائه ورواة أخباره ، فنراها أحياناً تدور فى هذه الدائرة اللغوية التى تحدثنا عنها ، على نحو ما نرى فى بيت حاتم الطائى الذى يتخذ منه اللغويون موضوعاً للاستشهاد على المعنى اللغوى للكلمة ، فالمقابلة فى هذا البيت بين التصعلك والغنى تدل فى وضوح لا لبس فيه على أنه يستعمل التصعلك فى معنى الفقر ، وهو استعمال يؤيده ذكر الفقر فى البيت التالى مرادفاً للتصعلك :

فما زادنا بغياً على ذى قرابة غنانا ولا أَزرى بأَحسابنا الفقر

ونراها أحياناً أخرى ترد فى بعض المواضع ، ولكن مفهومها الذى يتفق مع السياق لا يتفق تماماً مع مفهومها اللغوى .

فهذا عمرو بن بَرّاقة الهمْدانى يغير على إبله وخيله رجل من مراد، فيذهب بها . فيأتى عمرو فيغير على المرادى فيستاق كل شيء له ، ويقول :

تقولُ سليمى : لا تَعَرَّضْ لتلْفَة وليلك عن ليل الصعاليك نائم
وكيف ينامُ الليل منْ جُلُّ ماله حسامٌ كلون الملح أبيضُ صارمُ
أَلمْ تعلمى أَن الصعاليك نومهم قليلٌ إذا نام الخلىُّ المسالمُ[1]

فمن الواضح أن جو القصة وسياق الأبيات لا يدلان على أن الصعاليك هنا هم الفقراء ، وإلا فما معنى هذه النصيحة التى توجهها إلى الشاعر صاحبته بألا يعرض نفسه للتلف مع هؤلاء الصعاليك الذين ينام ليله عن ليلهم ؟ وما سر المقابلة بين قلة نومهم ونوم « الخلى المسالم » ؟ وما دخل المسالمة التى يتحدث عنها الشاعر فى حديث عن الفقر والغنى ؟ من الواضح أن الصعاليك

---

(١) القالى : الأمالى ٢/١٢١ – ١٢٣ ، والأغانى ٢١/١٧٥ .

هنا ليسوا هم أولئك الفقراء المعدمين الذين يقنعون بفقرهم ، أو يستجدون الناس ما يسدون به رمقهم ، وإنما هم أولئك المشاغبون المغيرون أبناء الليل الذين يسهرون لياليهم فى النهب والسلب والإغارة بينما ينعم الخليون المترفون المسالمون بالنوم والراحة والهدوء . فالكلمة إذن قد خرجت من الدائرة اللغوية ، دائرة الفقر ، إلى دائرة أخرى أوسع منها هى دائرة الغزو والإغارة للنهب والسلب .

وفى أخبار امرئ القيس أنه غزا بنى أسد ثائراً بأبيه ، « وقد جمع جموعاً من حِمْيَر وغيرهم من ذؤبان العرب وصعاليكها »[١] . ونتهم أنفسنا بالسذاجة لو تصورنا امرأ القيس وقد خرج لثأر أبيه الملك يجمع جموعاً من فقراء العرب المعدمين ، فما أهمية الفقر فى معركة من معارك الثأر ؟ وما الذى يحمل امرأ القيس على أن يجمع حوله جموعاً من الفقراء ليغزو بهم بنى أسد ؟ من الواضح أن هؤلاء الفقراء الذين استعان بهم امرؤ القيس فى إدراك ثأره لابد أن تكون حياتهم الاجتماعية قد تطورت تطوراً خاصاً جعلهم يصلحون للقيام بتلك المهمة الضخمة التى طلبهم إليها ، وهو تطور نحس شيئاً من سماته ومظاهره فى هذا الربط بينهم وبين الذؤبان ، فلابد أن هؤلاء الفقراء كان بينهم وبين الذئاب تشابه فى أسلوب الحياة أو أسلوب العيش أو طبيعة الشخصية .

ويشبه هذا ما ورد فى أخبار عَدِىّ بن زيد من أن النعمان بن المنذر حبسه حتى مات ، فأراد ابنه زيد أن يثأر له من النعمان ، فدبر مكيدة يوغر بها صدر كسرى عليه حتى يقتله ، وترامى خبر المكيدة إلى سمع النعمان ، ففر من كسرى ولجأ إلى قبائل العرب . ولكن أحداً لم يجرؤ على إجارته ، فقال له سيد من بنى شيبان فى حديث طويل معه : « فامض إلى صاحبك ، فإمّا أن صفح عنك فعدت ملكاً عزيزاً ، وإما أن أصابك فالموت خير لك من أن يتلعّب بك صعاليك العرب ، ويتخطفك ذئابها ، وتأكل مالك »[٢] . فمن الواضح أن الصعاليك هنا ليسوا هم الفقراء ، ولكنهم طوائف من قطاع

---

(١) البغدادى : خزانة الأدب ٣/٥٣٢ .

(٢) الأغانى ٢/١٢٦ ، والبغدادى : خزانة الأدب ١/١٨٥ – ١٨٦ .

الطرق كانوا منتشرين فى أرجاء الجزيرة العربية ، ينهبون من يلقونه فى صحراثها الموحشة الرهيبة ، ويتلعبون به ، ويتخطفونه ، ويأكلون ماله ، على حد ألفاظ ذلك السيد العربى الذى كان — ولا شك — يعرف جيداً طبيعة الدور الذى يقوم به هؤلاء الصعاليك على مسرح البادية العربية ، وهو دور تعبر عنه تعبيراً دقيقاً هذه الألفاظ .

وإلى جانب هذا نلاحظ أن بعض المصادر العربية تذكر طائفة من الأسماء على أنهم « صعاليك العرب »[١] ، أو تقص أخباراً عن صعاليك بعض القبائل[٢] ، أو تصف بعض الشعراء بأنهم من « صعاليك العرب »[٣] ، بل نلاحظ أن صاحب الأغانى يقول فى تقديمه للسُّلَيْك بن السُّلَكَة : « وهو أحد صعاليك العرب . . . وأخبارهم تذكر على تواليها هاهنا ، إن شاء الله تعالى ، فى أشعار لهم يُغنى فيها ، لتتصل أحاديثهم »[٤] ، مما يشعر بأن هؤلاء الصعاليك كانوا يكوّنون طبقة متميزة من طبقات المجتمع الجاهلى جعلت أبا الفرج يحرص على أن يذكر أخبارهم على تواليها حتى تتصل أحاديثهم ، على حد تعبيره .

وأظن أننا نستطيع بعد هذه الجولة أن نقف لنسجل أن مادة « صعلك » تدور فى دائرتين : إحداهما « الدائرة اللغوية » التى تدل فيها على معنى الفقر ، وما يتصل به من حرمان فى الحياة ، وضيق فى أسباب العيش ، والأخرى نستطيع أن نطلق عليها « الدائرة الاجتماعية » ، وفيها نرى المادة تتطور لتدل على صفات خاصة تتصل بالوضع الاجتماعى للفرد فى مجتمعه ، وبالأسلوب

---

(١) انظر على سبيل المثال : رسائل الخوارزمى / ١٤١ ، ١٤٢ ، والدبلى : الفلاكة والمفلوكين / ١١٩ .

(٢) انظر على سبيل المثال : الأغانى ٢١٥/١٨ ، ٢٠/٢٠ ، والبغدادى : خزانة الأدب ٤٠٥/٢ .

(٣) انظر على سبيل المثال : الأغانى ٧٣/٣ ، ٤٩/١٢ (بولاق) ، ٣٣/١٨ ، وابن قتيبة : الشعر والشعراء / ٢١٤ .

(٤) الأغانى ١٣٣/١٨ .

الذى يسلكه فى الحياة لتغيير هذا الوضع . وهذه الصفات هى بعض ما نحاول تبينه فى هذا البحث .

ونتساءل بعد هذا : ألم يلتفت اللغويون إلى هذا المعنى الاجتماعى ؟ ونعود مرة أخرى إلى النصوص اللغوية نستفتيها ، وتلفت نظرنا تلك العبارة الغامضة التى يذكرها بعض اللغويين فى ختام تعريفاتهم ، وهى قولهم « وصعاليك العرب ذؤبانها » . ونتساءل مرة أخرى : ماذا يعنى اللغويون بذؤبان العرب ؟ ونمضى إلى مادة « ذأب » نسأل اللغويين عن معنى « ذؤبان العرب » ، فإذا هم يحيلوننا مرة أخرى على « صعاليك العرب » . فى الصحاح « وذؤبان العرب أيضاً صعاليكها الذين يتلصّصون » ، وفى القاموس المحيط « وذؤبان العرب لصوصهم وصعاليكهم » ، وفى أساس البلاغة « وهم من ذؤبان العرب : من صعاليكهم وشُطّارهم » . وفى النهاية لابن الأثير « يقال لصعاليك العرب ولصوصها ذؤبان لأنهم كالذئاب » .

وهكذا كادت المسألة أن تكون دوراً — كما يقول المناطقة — لولا هذه الزيادات القليلة التى أضافها هؤلاء اللغويون إلى تعريفاتهم . ومن هذه الزيادات عرفنا أن هؤلاء الصعاليك كانوا « يتلصصون »[١] ، وأنهم كانوا « شطاراً »[٢] ، كما عرفنا أنهم سموا هكذا لأنهم كانوا كالذئاب . ومع ذلك فما زلنا نشعر بأن هذه الزيادات لم تتقدم بنا كثيراً فى داخل هذه « الدائرة الاجتماعية » ، وأن علماء اللغة يحومون حول هذه الدائرة دون أن ينفذوا إلى داخلها ، مع إحساسهم أن هناك شيئاً آخر غير الفقر فى مفهوم المادة ، وهو هذا الذى حاولوا أن

---

(١) فى تاج العروس (مادة لص) « وهو يتلصص — كما فى الصحاح وفى الأساس — إذا تكررت سرقته » .

(٢) فى لسان العرب (مادة شطر) « وشطر عن أهله . . . نزح عنهم ، وتركهم مراغماً أو مخالفاً ، وأعياهم خبثاً ، والشاطر مأخوذ منه » . وفى أساس البلاغة (المادة نفسها) « وفلان شاطر : خليع » . ومن الأشياء التى تلفت النظر أن الخليع من أسماء الذئب أيضاً (انظر لسان العرب : مادة خلع) ، وأن الذئب يشبه فى الشعر الجاهلى أحياناً بالخليع ، وفى معلقة امرئ القيس « به الذئب يعوى كالخليع المعيل » ، وهو من شعر تأبط شراً بدون شك عندى .

يفسروه بذلك الربط بين الصعاليك والذؤبان .

ولكننا لا نريد أن ننتهى من هذا البحث اللغوى دون أن نشير إلى أن أبا زيد القرشى ، صاحب جمهرة أشعار العرب ، قد تنبه إلى أن هناك جانبين لهذه المادة ، واستطاع أن يميز بينهما تمييزاً دقيقاً واضحاً حيث يقول[١] : « الصعلوك الفقير ، وهو أيضاً المتجرد للغارات » ، وهذا التعبير عن مفهوم المادة الاجتماعى بالتجرد للغارات يجعلنا نسجل لهذا العالم المتقدم على أصحاب المعاجم التى بين أيدينا أنه كان أدق من عرّف معنى الصعلوك .

وهنا نقف لنتساءل : ماذا فهمنا عن صعاليك العرب ؟

أغلب الظن أننا لم نصل إلى أشياء كثيرة ، وأننا ما زلنا فى بداية الطريق الطويل نتحسس خطواتنا فى الظلام تحت أضواء النجوم الخافتة ، وأن شوطاً بعيداً ما يزال ينتظرنا حتى مطلع الفجر . ويبدو أنه لابد لنا من أن نمضى إلى مصادر الأدب العربى نسألها : ما أخبار هؤلاء الصعاليك ؟ وأين شعر شعرائهم الذى صوّروا فيه حياتهم ؟ لعلنا نجد فيها وفيه ما نستطيع به أن نرسم صورة أشد وضوحاً لهذه الطبقة من طبقات المجتمع الجاهلى .

٣

فى المجتمع الجاهلى :

حين نرجع إلى أخبار هؤلاء الصعاليك نجدها حافلة بالحديث عن فقرهم ، فكل الصعاليك فقراء،لا نستثنى منهم أحداً ، حتى عروة بن الورد سيد الصعاليك الذى كانوا يلجئون إليه كلما قست عليهم الحياة ، ليجدوا عنده مأوى لهم حتى يستغنوا ، فالرواة يذكرون أنه « كان صعلوكاً فقيراً مثلهم »[٢]، وأخوه وابن عمه يقولان له — حين عرض عليه أهل امرأته التى أصابها فى بعض

---

(١) جمهرة أشعار العرب / ١١٥ .

(٢) التبريزى : شرح حماسة أبى تمام ٩/٢ .

غزواته أن يفتدوها — « والله لئن قبلت ما أعطوك لا تفتقر أبداً »[١] ، بل أكثر من هذا يذكر الرواة أنه جاء بامرأته إلى بنى النضير « ولا شيء معه إلا هى ، فرهنها ، ولم يزل يشرب حتى غَلِقَتْ »[٢] . وتكثر فى شعره أحاديث فقره ، وما يعانيه من حرمان ، وما يتكبده فى سبيل الغنى من جهد ومشقة ، وما يشعر به من ثقل التبعة التى يتحملها إزاء أهله ، وإزاء أصحابه الصعاليك أيضاً :

ذَرينى للغنى أسعى ، فإنى ... رأيت الناس شرهمُ الفقير[٣]
فَسِرْ فى بلاد الله والتمس الغنى ... تعش ذا يسار أو تموتَ فتُعْذَرَا[٤]
ومن يك مثلى ذا عيال ومُقْتِرًا ... من المال يطرحْ نفسه كلَّ مَطْرح[٥]

وهذا الفقر الذى استبد بحياة الصعاليك حمل لهم فى ركابه الجوع ، نتيجة طبيعية له ، ولعل الجوع أقسى ما يحمله الفقر إلى جسد الفقير ، وقد سئل أعرابى : ما أشد الأشياء ؟ فقال : كبد جائعة تؤدى إلى أمعاء ضيقة[٦] . وليس من شك فى أن هذه العبارة الساذجة التى صور فيها هذا الأعرابى إحساسه إنما تشير إلى قصة الحياة الأساسية ، قصة الصراع بين الحياة والموت . وذلك لأن المسألة تتصل بحاجات الجسم الحيوية الأولى ، فالجوع — كما يقرر علماء الاجتماع — أول الدوافع المسيطرة على حياة الإنسان[٧] . وقد كان من العرب من يغير من أجل الحصول على الطعام[٨] ، بل إن كثيراً من الصراع الداخلى

---

(١) الأغانى ٣/٧٧ .
(٢) المصدر نفسه / ٣٨ — وغلق الرهن فى يد المرتهن: استحله ، وذلك اذا لم يقدر الراهن على افتكاكه فى الوقت المشروط .
(٣) ديوانه / ١٩٨ .
(٤) ديوانه / ١٩١ .
(٥) ديوانه / ٩٩ .
(٦) البيهقى : المحاسن والمساوئ . ٣٠١ .
(٧) Groves; Personality and Secial Adjustment, p. 27.
(٨) ابن دريد : الاشتقاق / ٢٤٦ .

بين القبائل الجاهلية إنما يرجع — من بعض جوانبه — إلى الفقر والجوع [١] ، وما أكل ضباب الصحراء ويرابيعها وأورالها سوى مظهر من مظاهر هذا الجوع القاتل الذى كان يعانيه عرب البادية حين يجدبون وتتتابع عليهم السنين ، وما كان قتل بعض العرب أولادهم خشية إملاق سوى مظهر آخر من مظاهر هذا الجوع القاتل [٢] .

ويكثر الحديث عن الجوع فى أخبار الصعاليك وشعرهم ، ففى أخبار عروة أن ناساً من بنى عبس أجدبوا « فى سنة أصابتهم ، فأهلكت أموالهم ، وأصابهم جوع شديد وبؤس » ، فأتوا عروة يستنجدون به ، فخرج « ليغزو بهم ويصيب معاشاً » [٣] . وتنتشر فى شعره وأخباره مناقشات بينه وبين صعاليكه حول الجوع الذى كان يجهدهم فى غزواتهم [٤] . ويذكر الرواة أن أبا خِرَاش الهذلى أقفر من الزاد أياماً [٥] . ويحدثنا السليك بن السلكة فى بعض شعره كيف كان يغمى عليه من الجوع فى شهور الصيف حتى ليشرف على الموت والهلاك :

وما نلتُها حتى تصعلكت حقبة ... وكدت لأسباب المنيَّة أعرفُ
وحتى رأيت الجوع بالصيف ضَرَّنى ... إذا قمت تَغْشَانى ظلال فأُسْدِف [٦]

ويتحدث الأعلم الهذلى عن أولاده الشعث الصغار الذين ينظرون إلى من يأتيهم من أقاربهم بشىء يأكلونه :

وذكرتُ أهـلَ بالعرا ... ء وحاجة الشُّعْثِ التَّوالبْ

---

(١) انظر حديث الأصمعى فى الأغانى ١٤ / ٣٩ .
(٢) فى القرآن الكريم : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم » (سورة الإسراء — آية ٣١) — وانظر أيضاً سورة الأنعام — آية ١٥١ .
(٣) الأغانى ٣/٨١ ، ٨٢ .
(٤) انظر على سبيل المثال شرح ديوانه لابن السكيت / ١٠٣ ، ١٠٤ .
(٥) الأغانى ٢١/٦٠ .
(٦) الأغانى ١٨/١٣٥ — وأسدف الرجل : أظلمت عيناه من الجوع .

المُصْرِمينَ من التِّلا د اللامحين إلى الأَقاربْ[1]

بل إن الجوع ليشتد بعروة فيهتف بأصحابه الصعاليك هتفة من لا يطيق عليه صبراً أن هلموا إلى الغزو ، فالموت خير من حياة الجوع والهزال :

أقيموا بنى لبنى صُدُورَ ركابكمْ فإن منايا القوم خيرٌ من الهزْل[2]

وفى لامية العرب التى تُعد صورة دقيقة كاملة لحياة الصعاليك فى العصر الجاهلى حتى على فرض انتحالها وعدم صحة نسبتها إلى الشنفرى ، يرسم الشاعر صورة رائعة لذلك الجوع النبيل الذى يشعر به الصعلوك ، ولكن نفسه الأبية تأبى عليه أن يهينها من أجله ، فلا يجد أمامه سوى الصبر والقناعة :

أديمُ مطَالَ الجوع حتى أميته وأضربُ عنه الذكرَ صَفحاً فأُذْهلُ
وأستفُّ تُرْبَ الأَرض كى لا يرى له علىَّ منَ الطَّوْل امرؤٌ متطولُ
ولولا اجتنابُ الذام لم يبقَ مشرَبٌ يعاشُ به إلا لَدىَّ ومَأْكلُ
ولكنَّ نفساً حرة لا تُقيمُ بى على الضيم إلا ريثما أتحولُ
وأطوى على الخُمْصِ الحوايا كما انطوت خُيوطة مارىٍّ تُغارُ وتفتلُ
وأغدو على القوت الزهيد كما غدا أَزَلُّ نهاداهُ التنائفُ أطحلُ[3]

وإذا كان الجوع أقسى ما يصبه الفقر من سياط على جسد الفقير فإن هناك سياطاً أخرى لا تقل قسوة عن سياط الجوع ، ولكنها سياط نفسية يصبها الفقر على نفس الفقير .

والحديث عن هذه السياط النفسية حديث يطول ، لأنها تختلف باختلاف

---

(١) شرح أشعار الهذليين ١/٥٨ – والتوالب : الجحاش ، ويريد بهم أبناءه الصغار . والمصرم : الفقير .

(٢) ديوانه / ١٠٦ .

(٣) القالى : النوادر / ٢٠٤ – والمطال : المماطلة . الطول : المن . الذام : العيب . الخمص : ضمور البطن أو الجوع . الحوايا : الأمعاء . مارى : اسم رجل أو اسم القاتل . تغار : تحكم . الأزل : خفيف الوركين ، صفة للذئب . التنائف : جمع تنوفة ، وهى المفازة . الأطحل : الذى لونه بين الغبرة والبياض .

النفسيات ووقع الفقر عليها . وقد حاول صاحب « الفلاكة والمفلوكين »[١] أن يحصرها ، فعقد فى كتابه فصلا طويلا « فى الآفات التى تنشأ من الفلاكة ، وتستلزمها الفلاكة وتقتضيها »[٢] ، وعد منها الآلام العقلية ، وهو تعبير يرادف ما نعبر عنه بالآثار النفسية ، وحصرها فى ثلاثة أنواع ، وحاول أن يدلل على هذا التقسيم الثلاثى تدليلا عقليًّا منطقيًّا تكثر فيه الحدود والأقسام والمقدمات والنتائج . ولكن هذه المحاولة — من وجهة النظر العلمية الحديثة — غير دقيقة ، فإن هذه الآثار النفسية ليس من اليسير حصرها ، فليست المسألة مسألة منطقية تقبل القسمة العقلية ، ولكنها مسألة نفسية تتصل بالنفس البشرية ، تلك النفس الغامضة الممعنة فى الغموض ذات السراديب العميقة ، والأسرار الدفينة المكبوتة . ويحاول علماء النفس المحدثون دراسة هذه المسألة وأشباهها على أساس ما يسمونه « بالعقد النفسية » ، ومن بين هذه العقد عقدة يسمونها « عقدة الفقر » ، وهى تلك التى تتكون نتيجة للإحساس بالفقر ، وتدفع صاحبها فى محاولة التعويض عن الشعور بالنقص إلى العمل على أن يصير غنيًّا[٣] . فهذه العقدة هى المحور الذى تدور حوله تلك الآثار النفسية التى يخلفها الفقر فى نفس الفقير .

والمتأمل فى أخبار الصعاليك وأشعارهم يلفت نظره شعور حاد بالفقر ، وإحساس مرير بوقعه على نفوسهم ، وشكوى صارخة من هوان منزلتهم الاجتماعية وعدم تقدير المجتمع لهم ، وعجزهم عن الأخذ بنصيبهم من الحياة كما يأخذ سائر أفراد مجتمعهم ، أو الوقوف معهم على قدم المساواة فى معترك الحياة ، لا لأنهم هم أنفسهم عاجزون ، وإنما لأن مجتمعهم ظلمهم ، وحرمهم من تلك العدالة الاجتماعية التى يطمح إليها كل فرد فى مجتمعه ، وجرّدهم من كل الوسائل

---

(١) شهاب الدين الدلجى ، وقد عقد الفصل الأول من كتابه فى تحقيق معنى المفلوك ، وقال فيه : « هذه اللفظة تلقيناها من أفاضل العجم ، ويريدون بها بشهادة مواقع الاستعمال الرجل الغير المحظوظ المهمل فى الناس لإملاقه وفقره » (ص ٣) ، فهى تقرب من كلمة « الصعلوك » فى دائرتها اللغوية .

(٢) انظر الفصل الرابع ، ص ١٤ وما بعدها .

(٣) Groves; Personality and Social Adjustment, p. 231.

المشروعة التى يواجهون بها الحياة كما يواجهها غيرهم ممن توافرت لهم هذه الوسائل .

فقيس بن الحدَادِيَّة [١] يرى أنه لا يساوى عند قومه «عنزاً جرباء جَدْماء» [٢] وفى أخبار الشنفرى أن قومه قتلوا رجلا فى خفرة بعض الفهميين ، «فرهنوهم الشنفرى وأمه وأخاه ، وأسلموهم ، ولم يفدوهم» [٣] ، وخبر تلك اللطمة التى لطمتها الفتاة السَّلَامِيَّة للشنفرى، والتى كانت السبب المباشر فى تصعلكه ، لأنها أنكرت عليه أن يتسامى إلى مقامها الاجتماعى ، ويرفع الحواجز الاجتماعية التى تفصل بين طبقتيهما ، وبناديها بأخته ، خبر كبير الدلالة على ما كان يعانيه هؤلاء الصعاليك من مجتمعهم [٤] .

وينظر هؤلاء الفقراء الجياع ، المحتقرون من مجتمعهم ، المنبوذون من إخوانهم فى الإنسانية، إلى الحياة ليشقوا لهم طريقاً فى زحمتها ، وقد جُرِّدوا من كل وسائلها المشروعة ، فلا يجدون أمامهم إلا أمرين : إما أن يقبلوا هذه الحياة الذليلة المهينة التى يحيونها على هامش المجتمع ، فى أطرافه البعيدة ، خلف أدبار البيوت ، يخدمون الأغنياء ، أو ينتظرون فضل ثرائهم ، أو يستجدونهم فى ذلة واستكانة ، وإما أن يشقوا طريقهم بالقوة نحو حياة كريمة أبية ، يفرضون فيها أنفسهم على مجتمعهم ، وينتزعون لقمة العيش من أيدى مَنْ حرموهم منها ، دون أن يبالوا فى سبيل غايتهم أكانت وسائلهم مشروعة أم غير مشروعة ، فالحق للقوة ، والغاية تبرر الوسيلة .

---

(١) اختلفوا فى ضبط اسم أمه بين كسر الحاء وضمها : أما ابن دريد فهى عنده بالضم (الاشتقاق / ٢٧٧) ، وكذلك ابن عبد ربه (العقد الفريد ٣/٣٨٣) ، ولكنها عند السمعانى فى الأنساب بالكسر ، أما المرزبانى فإنه يذكر الضبطين فيقول «والحدادية أمه ، وهى من بنى حداد من كنانة ، وقوم يجعلونها من حداد محارب ، وحداد بالضم من كنانة ، وحداد بالكسر من محارب» (معجم الشعراء / ٣٢٥) . وهكذا يتضح أن الاختلاف فى ضبط الاسم راجع إلى الاختلاف فى القبيلة التى تنتسب إليها أم الشاعر ، وهى عند ابن حبيب وأبى الفرج من محارب، وعند ابن الأعرابى من كنانة (من نسب إلى أمه من الشعراء / ٦ ، والأغانى ١٣/٢ – بولاق) .

(٢) انظر الأغانى ١٣/٨ (بولاق) .

(٣) ابن الأنبارى : شرح المفضليات / ١٩٧ ، ١٩٨ .

(٤) انظر المصدر السابق / ١٩٥ ، ١٩٦ ، والأغانى ٢١/١٣٤ وما بعدها .

وقد سلك الصعاليك السبيلين ، أو — بعبارة أدق — انقسموا مع هذين السبيلين إلى طائفتين : طائفة قبلت ذلك الوضع الاجتماعى الذليل ، رضيه لهم ضعفٌ فى النفس أو ضعف فى الجسد أو ضعف فى النفس والجسد جميعاً ، وطائفة رفضت ذلك الوضع ، وأبت أن تعيش تلك الحياة الساقطة التافهة المهينة ، ووجدت فى القوة ، قوة النفس وقوة الجسد ، وسيلة تشق بها طريقها فى الحياة .

وفى شعر عروة موازنة طريفة بين هاتين الطائفتين ، يعقدها أبو الصعاليك فى دقة وبراعة ، ويصور فيها اختلاف ما بينهما فى الشخصية ، وأسلوب الحياة والغاية التى تنتهى إليها كل منهما[1] .

وتتجلى قوة نفوس هذه الطائفة الثانية من الصعاليك فى استهانتهم بالحياة فى سبيل الوصول إلى الغاية التى يسعون إليها . إنهم يريدون أن يحققوا لهم مكانة فى هذا المجتمع الذى يحتقرهم ويستهين بهم عن طريق فرض أنفسهم بالقوة عليه ، وهم فى سبيل هذا لا يبالون بشىء ، حتى بالحياة نفسها ، فهم جميعاً مؤمنون بفكرة الفناء فى سبيل المبدأ ، وما قيمة الحياة إذا عاش الإنسان فقيراً محتقراً ، منبوذاً من مجتمعه ، مجفوًّا من أقاربه ؟ إن الموت فى هذه الحالة خير من الحياة :

إذا المرء لم يَبْعث سَوَاماً ولم يَرُحْ ... عليه ، ولم تعطف عليه أَقاربُهْ
فللموتُ خيرٌ للفتى منْ حياته ... فقيرًا ، ومنْ مولًى تدبُّ عقاربه[2]
فقلت له : ألا احْيَ وأنتَ حر ... ستشبعُ فى حياتك أو تموتُ[3]
فسر فى بلاد الله والتمس الغنى ... تعش ذا يسار أو تموتَ فتُعْذَرا[4]

---

(١) انظر أبياته الرائية « لحا الله صعلوكاً » فى ديوانه / ٧٣ — ٨٢ . وجمهرة أشعار العرب / ١١٥ . والأصمعيات / ٢٩ ، ٣٠ . وانظر ص ٣٢٩ من هذا البحث .

(٢) عروة أيضاً (انظر ديوانه / ١٥٠ ، ١٥١) — والبيتان يرويهما أبو تمام فى حماسته لأبى النشناش ، وهو لص من تميم إسلامى ، مع اختلاف فى الألفاظ (انظر الحماسة ١٦٦/١ ، ١٦٧) .

(٣) عروة : ديوانه / ١٦٦ .

(٤) عروة أيضاً : ديوانه / ١٩١ .

وفيم الخشية من الموت ؟ إن كل حي ملاقيه، سواء مَنْ خاطر بنفسه ومن أحجم ، بل إن الموت قد يصيب المتخلف فى أهله وينجو منه المغامر المخاطر :

أرى أم حسان الغـداةَ تلومنى تخوفنىَ الأعداء ، والنفس أخْوَفُ
لعـل الذى خوفتنا مِنْ أمامنا يصادفـه فى أهله المتخلف[1]

ومهما يمد الله فى عمر الإنسان فالموت فى انتظاره مُشْرَعَةٌ أسنته :

وإنى ، وإن عُمِّرت ، أعلم أننى سألقى سنان الموت يبرق أصْلعا[2]

فالموت نهاية كل حي ، لن ينجو منه أحد مهما يحط نفسه بأبواب قوية وحراس أشداء :

لو كنتُ فى رَيمانَ تحرُسُ بابه أراجيلُ أحْبوشٌ وأغضَفُ آلِفُ
إذن لأتتنى حيثُ كنتُ منيتى يخبٌّ بها هاد بأمرىَ قائفُ[3]

وهى ميتة واحدة يلقاها الإنسان ثم لا تتكرر :

دعينى ، وقولى بعدُ ما شئتِ ، إننى سيُغْدَى بنعشى مرةً فأُغيَّبُ[4]

ثم ما الذى يغرى الصعلوك على التمسك بالحياة والحرص عليها ؟ إن أحداً لا يرغب فى حياته ، وإن أحداً لن يبكى عليه بعد موته . إنه يعيش وحيداً ، ويموت وحيداً :

إذا ما أتتنى ميتتى لم أبالها ولم تُذْرِ خالاتى الدموعَ وعمتى[5]

وصعاليك هذه الطائفة جميعاً ذوو عزيمة قوية صادقة ، لا يثنيهم شيء

---

(١) عروة أيضاً : ديوانه / ٩١ .
(٢) تأبط شراً : الأغانى ١٨/٢١٧ .
(٣) أبو الطمحان القينى: الأغانى ١١/١٣٢ (بولاق) – ريمان: حصن باليمن. وأراجيل : جمع راجل . وأحبوش : الجماعة من الناس ليسوا من قبيلة . والأغضف : الكلب المسترخى الأذن . والآلف : المستأنس بمن يحرسهم ، من الإلف .
(٤) الشنفرى : الأغانى ١٨/٢١٦ – وديوانه / ٣٢ .
(٥) الشنفرى أيضاً : الأغانى ٢١/١٣٩ – والمفضليات / ٢٠٦ .

عن هدفهم الذى يسعون إليه إلا الموت ، يقول تأبط شرًّا مصوّراً صدق عزيمته وقوة نفسه :

وكنتُ إذا ما هممتُ اعتزمتُ   وَأَحْرِ إذا قلت أنْ أفعلا[1]

وإذا كانت الحياة قد قست عليهم فإنهم لن يستكينوا لها ، وإذا كانت تعمل على إخضاعهم وإذلالهم فإنهم سيقفون فى وجهها ، ويتحدونها ، ويشنون عليها حرباً لا هوادة فيها ، وإذا كانت قد ألقت بهم فى الرغام فإنهم سينهضون برغم كل شىء . ولعل هذا البيت الذى قاله أبو خراش الهذلى الصعلوك فى رثاء أخ له يعبر تعبيراً دقيقاً عن تلك القوة النفسية التى كان يتمتع بها كل صعلوك من صعاليك هذه الطائفة :

ولكنه قد نازَعتهُ مجَاوعٌ   على أنه ذو مِرَّة صادقُ النهض[2]

هكذا كانت نفسية هؤلاء الصعاليك ، كل منهم « قد نازعته مجاوع » ، ولكن كلاً منهم « ذو مرة صادق النهض » .

ومن عناصر قوتهم النفسية أنفتهم من القيام بتلك الأعمال التى يصح أن نطلق عليها « الأعمال الفرعية فى المجتمع القبلى » ، وهى تلك التى كان يقوم بها العبيد وأشباههم ، ويأنف السادة من القيام بها ، كخدمة الإبل والقيام بأمرها[3]. ويصرح تأبط شرًّا بترفعه على هذه الأعمال الفرعية وبأنه يأنف من القيام بها :

ولستُ بِتِرْعِيٍّ طويل عَشَاؤُهُ   يؤنفها مستأْنَفَ النبت مُبْهِلِ[4]

---

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء /١٧٧ ، وحماسة ابن الشجرى / ٤٧ . ويذكر De Goeje ناشر « الشعر والشعراء » فى تعليقه على هذا البيت أن فى بعض المخطوطات « فعلت » مكان « اعتزمت » ، وهى عندى أدق فى تأدية المعنى .

(٢) حماسة أبى تمام ٢/١٤٥ ، وديوان الهذليين ٢/١٥٨ ، وفيه « مخامص » مكان « مجاوع » .

(٣) « العبد لايحسن الكر ، وإنما يحسن الحلاب والصر » (عنترة : الأغانى ٨/٢٣٩) ، وفى شعر السليك إشارة إلى قيام العبيد والإماء برعى الإبل (الأغانى ١٨/١٣٤) .

(٤) لسان العرب : مادة (رعى) — الترعى : الذى يجيد رعية الإبل ، أو من صناعته وصناعة آبائه الرعى. ويؤنفها: أى يتتبع بها أنف المرعى أى التى لم ترع . وأبهل إبله: تركها مهملة .

ويصرح مرة أخرى بأنه يخجل من الوقوف وسط قطعان الغنم ، وقد حمل فى يده عصا طويلة حتى أشبه ذلك أنطائر المائى الطويل المنقار وقد وقف فى مستنقع من مستنقعات المياه الضحلة :

ولست براعى ثَلَّة قام وَسطها طويل العصَا غُرْنَيق ضَحل مُرَسَّلِ[1]

فهم لا يرتضون لأنفسهم إلا تلك الأعمال الأساسية التى يقوم عليها المجتمع البدوى كالغزو والإغارة . يقول تأبط شرًا :

متى تبغنى ما دمتُ حيًّا مسلَّماً تجدنى مع المُسْتَرْعل المُتَعبْهِلِ[2]

فمكانهم الذى يطلبونه لأنفسهم ليس وراء الإبل أو بين قطعان الغنم ، ولكنه فى الطليعة المتقدمة بين القادة والأبطال .

ثم هم — برغم فقرهم وما يلاقونه من مجتمعهم — كرماء ، حتى ليضرب بهم المثل فى الكرم[3]، ويُقْرَن عروة بحاتم الطائى الذى يعد فى نظر العرب المثل الأعلى للجود والسخاء ، وقد قال عبد الملك بن مروان : من زعم أن حاتماً أسمح الناس فقد ظلم عروة بن الورد[4] ، وأبدى تعجبه من أن الناس ينسبون الجود والسخاء إلى حاتم ويظلمون عروة[5]، ووصفه الأصمعى بأنه « شاعر كريم »[6] . والواقع أننا لسنا فى حاجة إلى هذه الشهادات وأمثالها ، لأن أخبار عروة نفسها تفيض بأحاديث كرمه ، بل إن الرغبة فى الكرم التى كانت تملأ عليه نفسه كانت بعض الدوافع التى دفعته إلى تلك الثورة الاقتصادية التى أعلنها فى المجتمع الجاهلى :

---

(١) لسان العرب : مادة (رسل) — الثلة : جماعة الغنم . والغرنيق : طائر مائى . ورجل مرسل : كثير الرسل أى اللبن .

(٢) لسان العرب : مادة (رعل) ، ومادة (عبهل) — المسترعل : الذى ينهض فى الرعيل الأول ، أو الخارج فى الرعيل ، أو هو قائد الفرسان . والمتعبهل : الممتنع الذى لا يمنع .

(٣) « كل صعلوك جواد » (الميدانى : مجمع الأمثال ٢/٩٠) .

(٤) الأغانى ٣/٧٤ .

(٥) انظر ابن السكيت : شرح ديوان عروة / ١٩٠ .

(٦) الأصمعى : فحولة الشعراء (مخطوطة) ورقة رقم ٣ — والمرزبانى : الموشح / ٨٠ .

يُريح علىَّ الليلُ أضيافَ ماجد كريم ،ومالى سارحاً مالُ مُقْتِرِ[١]
أيهلك معتمٌّ وزيدٌ ولم أقم على نَدَب يوماً ولى نفس مُخْطِر[٢]

وهى تلك الثورة التى كانت تدفعه إلى مهاجمة الأغنياء البخلاء ليوزّع ما يغنمه منهم على الفقراء الذين كانوا يلتفون حوله ، ويلوذون به ، فى سنى الجدب والقحط والجفاف[٣] . وهو — قبل هذا كله — صاحب هذه الأبيات الجميلة التى يصور فيها كرمه تصويراً رائعاً على حظ كبير من الإنسانية ، فيراه مشاركة الفقراء له فى إنائه ، واكتفاءه هو بالماء الخالص فى أيام الشتاء الباردة ليوفر لهم طعامهم ، بل يراه تقسيما لجسمه فى أجسامهم حتى أصبح هزيلا شاحباً :

إنى امروٌّ عافى إنائِىَ شرْكةٌ وأنتَ امروٌّ عافى إنائك واحدُ
أتهزأ منى أنْ سمنتَ وقد ترى بجسمىَ مسَّ الحق ، والحقُّ جاهدُ
أقسِّم جسمى فى جسوم كثيرة وأحسو قرَاحَ الماءِ ، والماء باردُ[٤]

وتنتشر أحاديث هذا الكرم فى شعره انتشاراً واسعاً[٥] ، حتى لتكاد كل صفحة من ديوانه تنطق بهذه الأحاديث التى كان يراها :

أحاديث تبقى ، والفتى غيرُ خالد إذا هو أمسى هامة فوق صَيِّرِ[٦]

وهى أحاديث كان كل صعلوك يحرص على أن تبقى له بعد موته . وفى قافية تأبط شرًّا المفضلية المشهورة دفاع قوى عن كرمه وإسرافه اللذين جرا عليه كثيراً من اللوم والعذل والتأنيب :

---

(١) ديوانه / ٨٥ — والأصمعيات / ٣٠ .
(٢) ديوانه / ٨٣ — والأصمعيات / ٣٠ .
(٣) انظر الأغانى ٣/٧٨ — ٧٩ .
(٤) ديوانه / ١٣٨ — ١٤١ .
(٥) انظر على سبيل المثال ديوانه / ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٨٥ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٥٥ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٨١ .
(٦) ديوانه / ٦٤ — ولسان العرب : مادة (صير) — والصير : القبر .

بلْ منْ لعذَّالة خذَّالة أَشِبٍ حرَّقَ باللوْم جلدى أَىَّ تَحراقِ
يقولُ أهلكتَ مالا لو قنعتَ به من ثوب صدْق ومن بَزٍّ وأعلاق
عاذلتى إن بعض اللوم مَعْنَفَةٌ وهل متاعٌ ، وإن أبقيته ، باق[1]

أما مادة هذا الكرم فهى — بطبيعة الحال — ما يغنمونه من غزواتهم فى أرجاء الجزيرة العربية ، وغاراتهم على القبائل أو على القوافل التجارية أو على طبقة الأغنياء البخلاء . فقد كانت هذه الغنائم تتيح لهم فرصة — مهما تكن قصيرة — لكى يتشبهوا بالسادة الأغنياء فى البذل والعطاء واكتساب المحامد . وهكذا « كان الصعلوك ، فزع البرية ، ينقلب فى أعقاب غزواته الناجحة سيداً كريماً نبيلا ، يَصُفُّ على المواقد الإبل التى نهبها ليطعم منها اليتامى والأرامل »[2] . فالغزو والغارة والسلب والنهب ليست عندهم وسائل للغنى وجمع المال فحسب ، ولكنها أيضاً وسائل للبذل والعطاء ، واكتساب المحامد ، والتشبه بالسادة الأغنياء فى الكرم والجود . وإذا كانت هاتان الغايتان تتنازعان نفوس الصعاليك ، وتتجاذبانها كلٌّ إليها ، على نحو ما نرى عند تأبط شرًّا الذى يصرح فى قافيته المفضلية بأن المال وسيلة للكرم ، ووسيلة « لتسديد الخلال » أيضاً[3] ، فإن الغاية الأخيرة وحدها كانت هى الغاية الأساسية عند عروة الذى خلصت نفسه تماماً من هذا التنازع وهذه المجاذبة :

دَعينى أطوِّفْ فى البلاد لعلنى أفيد غنى فيه لذى الحق مَحمِلُ
أليس عظيماً أنْ تلمَّ ملمَّة وليس علينا فى الحقوق معوَّل
فإن نحن لم نملك دفاعاً بحادث تلم به الأيام فالموت أجملُ[4]

---

(١) المفضليات / ١٨ — عذالة وخذالة للمبالغة . والأشب : المختلط عليه المعترض. والأعلاق : الأشياء النفيسة .

(٢) Lammens; Le Berceau de l'Islam, vol. I, p. 190.

(٣) انظر المفضليات / ١٩ — الخلال : خصاصات الفقر ، جمع خله .

(٤) ديوانه / ٢٠٦ .

فطلب الغنى عند عروة ليس هدفاً فى ذاته ، ولكنه وسيلة للكرم وقضاء الحقوق والتشبه بالسادة .

وإلى جانب هذه القوة النفسية التى كان هؤلاء الصعاليك يمتازون بها كانوا يتمتعون أيضاً بحظ وافر من الشجاعة والجرأة وقوة الجسد .

وتفيض أخبارهم وأشعارهم بأحاديث هذه القوة ، كما تتردد هذه الأحاديث فى أخبار معاصريهم وفى شعرهم أيضاً . يقول تأبط شرًّا مفتخراً بقوته :

وما وَلَدَتْ أمى من القوم عاجزًا ولا كان ريشى من ذُنَابَىَ ولا لَغْبِ[1]

ويصرح الشنفرى — فى اعتداد بنفسه — بأنه يقدم فى شجاعة وجرأة حيث يقف الجبان هلعاً جزوعاً :

إذا خشعت نفس الجبان وخَيَّمَتْ فلى حيث يخشى أن يجاوز مِخْشَفُ[2]

ويرسم عمرو بن معديكرب الفارس المشهور صورة للسليك بن السلكة يصفه فيها بأنه « كالليث يلحظ قائماً » ، وبأنه :

له هامة ما تأكل البَيْضُ أمَّها وأشباح عادىٌّ طويل الرواجب[3]

ويرسم أبو كبير الهذلى فى أبياته اللامية التى رواها أبو تمام فى حماسته[4] صورة قوية لتأبط شرًّا ، يصور فيها قوته وصلابته وخفته ، وسرعة عَدْوِه ، وجرأة قلبه ، وشدة مراسه ، ومضاء عزيمته ، وكيف أعدته الطبيعة منذ طفولته المبكرة ، بل من قبل طفولته ، ليكون قويًّا يستطيع أن ينهض بالعبء الذى

---

(١) لسان العرب ، مادة (لغب) — الذنابى . ذنب الطائر أو منبت الذنب . واللغب : الريش الفاسد .

(٢) الأغانى ٢١/١٤١ ، وفى ديوانه / ٣٩ « وآب إذا أجرى الجبان وظنه » ولا معنى له — خيم : أقام حيث هو فلم يبرح ، أو جبن ونكص . والمخشف : الجرىء على هول الليل ، وهو هنا صفة للقلب .

(٣) ابن قتيبة : الشعر والشعراء / ٢١٦ ، ٢١٧ — أم كل شىء : أصله وعماده ، وأم الرأس : الدماغ أو الجلدة الرقيقة التى عليها . والبيضة : خوذة الحديد . وعادى : كأنه من قوم عاد . والرواجب : مفاصل الأصابع .

(٤) انظر جـ ١ ص ٨٢ — ٨٩ .

ستلقيه الحياة على عاتقه فيما بعد ، ذلك العبء الثقيل الذى لا يستطيع أن ينهض به إلا من أعدته الطبيعة له إعداداً خاصًّا ، وهى صورة متكاملة الجوانب ، دقيقة الخطوط ، واضحة الألوان ، يرسمها الشاعر لتأبط شرًّا ، ولكنها تصلح أيضاً لكل صعلوك من أولئك الصعاليك الأقوياء الذين روّعوا الجزيرة العربية فى عصرها الجاهلى ، وأثاروا فى أرجائها الرعب والفزع .

وحقًّا لقد كان هؤلاء الصعاليك فزعاً رهيباً فى هذا المجتمع الجاهلى ، حتى لنسمع أن فارساً من فرسانه المعدودين : وهو عمرو بن معد يكرب ، يصرح بأنه لا يخشى أحداً من فرسان العرب إلا أربعة ، أحدهم السليك ابن السلكة[1] ، وأنه يستطيع وحده أن يحمى الظعينة ويخترق بها أعماق الصحراء ما لم يلقه واحد من هؤلاء الأربعة[2] . وحسب السليك أن يُقْرَن بعامر وعتيبة وعنترة ، وأن يخشى بأسه عمرو بن معد يكرب .

والواقع أن هذه الشجاعة الفائقة لم تكن مقصورة على صعلوك دون صعلوك ، وإنما كانت صفة يمتاز بها كل صعاليك هذه الطائفة ، حتى أصبح الصعلوك مثلا يضرب فى الشجاعة[3] . أما أولئك الصعاليك الذين عرفوا بالفرار فإنهم كانوا يَعُدُّونه لوناً من ألوان قوتهم الجسدية ، لأنه المجال الذى يظهرون فيه شدة

---

(١) « ما أبالى من لقيت من فرسان العرب ما لم يلقنى حراها وهجيناها » يعنى بالحرين عامر بن الطفيل ، وعتيبة بن الحارث بن شهاب ، وبالعبدين عنترة ، والسليك بن السلكة . (الأغانى ٨/٢٤٦) .

(٢) « لو سرت بظعينة وحدى على مياه معد كلها ما خفت أن أغلب عليها ، ما لم يلقنى حراها أو عبداها ، فأما الحران فعامر بن الطفيل ، وعتيبة بن الحارث بن شهاب ، وأما العبدان أسود بنى عبس (يعنى عنترة) والسليك بن السلكة ، وكلهم قد لقيت ، فأما عامر بن الطفيل فسريع الطعن على الصوت ، وأما عتيبة فأول الخيل إذا أغارت وآخرها إذا آبت ، وأما عنترة فقليل الكبوة شديد الجلب ، وأما السليك فبعيد الغارة كالليث الضارى » (الأغانى ١٤/٢٨ ، وشرح ابن الأنبارى على المفضليات / ٧٠٤ ، ٧٠٥ ، وانظر أيضاً أسامة بن منقذ : لباب الآداب / ١٨١) .

(٣) « كان يقاتلهم بجنده مقاتلة الصعلوك » (من حديث ارسول المهلب يصف فيه للحجاج قتاله الخوارج — انظر المسعودى : مروج الذهب ٢/١٤٨) .

عدوهم ، كما كانوا يرون فيه وسيلة للنجاة حتى يستأنفوا القتال فى ظروف أشد ملاءمة لهم . يقول أبو خراش الهذلي الصعلوك :

فإنْ تَزْعُمى أنى جبنتُ فإننى ... أفرّ وأرمى مرةً كل ذلك
أقاتلُ حتى لا أرى لى مُقَاتَلاً ... وأنجو إذا ما خفتُ بعض المهالكِ[1]

فهو يدافع عن فراره ، ويرى أنه ليس دليلا على جبنه ، وإنما هو « خطة موضوعة » يضطر إليها حين يصبح القتال « مغامرة انتحارية » لا أمل فيها ، حتى ينجو من هلاك محقق ، فيستأنف القتال حين يصبح القتال أمراً مضمون العاقبة .

ومن أشد ما يلفت النظر من مظاهر هذه القوة الجسدية سرعة العدو الخارقة للعادة التى اشتهرت بها هذه الطائفة من الصعاليك ، حتى ليطلق عليهم أحياناً اسم « العدائين »[2] ، أو « الرَّجَلِيِّين » أو « الرُّجَيْلاء »[3] ، كأنما أصبحت سرعة العدو ظاهرة مميزة لهم ، وصفة ملازمة يعرفون بها . والمثل يضرب بجماعة منهم فى سرعة العدو ، فيقال « أعدى من الشنفرى »[4] ، و « أعدى من السليك »[5] ، و « أمضى من سليك المقانب »[6] . وتصفهم مصادر الأدب

---

(١) ديوان الهذليين ٢/١٦٩ – وحماسة الخالديين (مخطوطة) ورقة رقم ٣٩٧ .

(٢) انظر على سبيل المثال : الأغانى ١٨/١٣٣ ، ٢١٠ – والبغدادى : خزانة الأدب ٢/١٧ – والميدانى : مجمع الأمثال ١/٤٣١ – والنيسابورى : لطائف المعارف (مصورة) لوحة رقم ٧٧ – وتاج العروس : مادة (شفر) ومادة (شنفر) .

(٣) فى تاج العروس (مادة رجل) « والرجيلاء كفميصاء ، والرجليون محركة ، قوم كانوا يعدون » . وهما تسميتان تترددان كثيراً فى مصادر الأدب العربى وفى كتب اللغة ، انظر على سبيل المثال ابن قتيبة : الشعر والشعراء / ٢١٤ – والمرزبانى : معجم الشعراء / ٤٦٨ – والآمدى : المؤتلف والمختلف / ٦٧ – والمبرد : نسب عدنان وقحطان / ٩ – وابن حبيب : المحبر / ٤٣٣ – وابن دريد : جمهرة اللغة ١/١٤٠ – وابن عبد ربه : العقد الفريد ٣/٣٤٧ .

(٤) الميدانى : مجمع الأمثال ١/٤٣٠ – وتاج العروس : مادة (شفر) ومادة (شنفر) .

(٥) المصدران السابقان : الميدانى / ٤٣١ – والتاج : مادة (سلك) .

(٦) الميدانى : مجمع الأمثال ٢/٢٢٣ – والأغانى ١٨/١٣٧ – وابن عبد ربه : العقد الفريد ٣/٧٠ – وابن دريد : جمهرة اللغة ١/٣٢٣ .

العربى بأنهم « أشد الناس عدواً »[١] ، أو أنهم « لا يجارَوْن عدوّا »[٢] ، أو « لا يُلْحَقون »[٣]، أو يعدون عدواً يسبقون به الخيل[٤]، أو لا تعلق بهم الخيل[٥] ، أو لم تلحقهم الخيل[٦] .

وتفيض هذه المصادر بأحاديث عدوهم وأخبار سرعتهم ، وتبالغ فيها مبالغة تبدو أحياناً غير مقبولة ، فتأبط شرًّا « كان أعدى ذى رجلين وذى ساقين وذى عينين ، وكان إذا جاع لم تقم له قائمة ، فكان ينظر إلى الظباء ، فينتقى على نظره أسمنها ، ثم يجرى خلفه ، فلا يفوته حتى يأخذه فيذبحه بسيفه ، ثم يشويه فيأكله »[٧] . وفى أخبار حاجز الأزدى أن أباه قال له : « أخبرنى يا بنىَّ بأشد عَدْوك ، قال : نعم ، أفزعتنى خثعم ، فنزوت نزوات ، واستفزتنى الخيل ، واصطف لى ظبيان ، فجعلت أنهنههما بيدى عن الطريق لضيقه ، ومنعانى أن أتجاوزهما فى العدو لضيق الطريق ، حتى اتسع واتسعت بنا فسبقتهما »[٨]. وفى أخبار السليك أن بنى كنانة قالوا له حين كبر : « إن رأيت أن ترينا بعض ما بقى من إحضارك ، فقال : اجمعوا لى أربعين شابًّا ، وابغونى درعاً ثقيلة . فأخذها فلبسها ، وخرج الشباب ، حتى إذا كان على رأس ميل أقبل يُحْضِر ، فلاث العدو لَوْثاً ، واهتبصوا فى جنبتيه فلم يصحبوه إلا قليلا ، فجاء يحضر منتبذاً حيث لا يرونه ، وجاءت الدرع تخفق فى عنقه كأنها خرقة »[٩] . وفى أخبار أبى خراش أنه دخل مكة « والوليد بن المغيرة المخزومى فرسان يريد أن يرسلهما فى الحَلْبة ، فقال للوليد : ماتجعل لى إن سبقتهما ؟ قال : إن فعلت فهما لك ،

---

(١) الأغانى ١٨/١٣٤ — والنيسابورى : لطائف المعارف ، لوحة ٧٧ .
(٢) المرزبانى : معجم الشعراء / ٤٦٨ .
(٣) الأغانى ١٨/١٣٣ ، ٢٠/٢٠ .
(٤) الأغانى ١٢/٤٩ (بولاق) .
(٥) الأغانى ١٨/١٣٣ ، ١٣٤ — وابن قتيبة : الشعر والشعراء / ٢١٤ .
(٦) البغدادى : خزانة الأدب ٢/١٦ .
(٧) الأغانى ١٨/٢١٠ .
(٨) الأغانى ١٢/٤٩ ، ٥٠ (بولاق) .
(٩) ابن قتيبة : الشعر والشعراء / ٢١٤ — اهتبصوا : أسرعوا أو بالغوا فى العدو .

فأرسلا وعدا بينهما فسبقهما ، فأخذهما »[١]. ويذكر الرواة أن خطو الشَّنْفَرَى ذُرِع ليلة قُتل ، « فوجد أول نزوة نزاها إحدى وعشرين خطوة ، والثانية سبع عشرة خطوة ، والثالثة خمس عشرة خطوة »[٢] . ومن الطريف أن يصف تأبط شرًّا رفيقه فى الصعلكة الشنفرى حين يعدو بأنه « قد طار »[٣]، أو يصف عدْوَ عمرو بن برّاقة بأنه « مثل الريح »[٤] ، أو نسمعه يقسم بقوله « والذى أعدو بطيره »[٥] ، وهو قسم يستمد طرافته من ذكر الطير فيه ، وعقد صلة بينها وبين عدوه ، كأنما أصبح الصعلوك يعدو بأجنحتها .

وفى كل مناسبة يردد هؤلاء الصعاليك فى شعرهم أحاديث عدوهم وسرعتهم . وهم يتحدثون عنهما دائماً فى اعتداد وفخر كبيرين ، إذ يرون فيهما ميزة تفردوا بها من بين سائر البشر ، ووسيلة تعينهم على الحياة ، وتيسر لهم سبل النجاة . يقول تأبط شرًّا مفتخراً بسرعته التى أنجته من أعدائه وما أرسلوه خلفه من خيل سريعة :

ليلة صاحوا وأغرَوا بى سرَاعهمُ ... بالعَيْكتين لدى معدَى ابن براق
كأنما حثحثوا حُصًّا قوادمه ... أو أم خِشف بذى شَثٌّ وطُبَّاق
لاشىء أسرَعُ منى ، ليس ذا عُذَر ... وذا جناح بجنب الرَّيْد خفاق
حتى نجوتُ ولمَّا ينزعوا سَلَبى ... بواله من قَبِيض الشد غَيْداق[٦]

(١) الأغانى ٢١/٥٧ .
(٢) البغدادى : خزانة الأدب ٢/١٨ .
(٣) ابن الأنبارى : شرح المفضليات / ٦ .
(٤) الأغانى ١٨/٢١٠ .
(٥) المصدر السابق / ٢١١ .
(٦) المفضليات / ٧ — ١١ . العيكتان : اسم موضع . حثحثوا : حركوا ، من الحث . القوادم : ما يلى الرأس من ريش الجناحين ، والحص : التى تتناثر ريشها وتكسر ، وهذه دلالة على السرعة والخفة ، وقوله « حصا قوادمه » يعنى الظليم . الخشف : ولد الظبية . الشث والطباق : نبتان من نبت السراة . العذر : ما أقبل من شعر الناصية على الوجه ، ويعنى بذى عذر فرسا . الريد : حرف الجبل الذى يشرف على الهواء . الواله : الذاهب العقل فليس يستبقى من جهده فى عدوه شيئاً . القبيض : السريع . الشد : العدو . الغيداق : الكثير الواسع .

إنه سريع كالظليم أو الظبية ، بل إنه أسرع من كل شيء حتى الخيل الجياد والطير الجارحة فوق قمم الجبال . ويصرح أبو خراش بأن سرعة عدوه هى التى أنجته من موت محقق ، فلولاها لآمت امرأته ويتم ابنه :

تقول ابنتى لما رأتنى عشيةً : سَلِمْتَ وماإن كدتَ بالأمس تَسْلَمُ
ولولا دِرَاكُ الشد قاظت حليلتى تخيَّر من خطابها وهى أيِّمُ
فتقعد أو ترضى مكانى خليفةً وكاد خراشٌ يومَ ذلك يَيْتَم[1]

وفى لامية العرب صورة قوية لهذه السرعة نرى فيها الصعلوك يسبق القطا الظامئة وهى تسرع إلى الماء :

وتشربُ أسآرى القطا الكُدْرُ بعدما سرَتْ قَرَباً أحشاؤها تتصَلصَلُ
هممتُ وهمتْ .وابتدرنا ، وأسدلتْ وشمَّر منى فارطٌ. متمهِّلُ
فوليتُ عنها وهى تكبو لعُقره يباشره منها ذُقونٌ وحَوْصَلُ[2]

إنها مباراة طريفة يقدمها لنا الشاعر بينه وبين القطا فى الوصول إلى الماء ، تنتهى بفوزه عليها ، وإدراكه الماء قبلها ، بل لقد شرب وارتوى قبل أن تصل هى ، فلما وصلت لم تجد إلا سؤراً تشربه من بعده .

ولعل أقوى صورة رسمها صعلوك لهذه السرعة هى تلك الصورة التى رسمها تأبط شرًّا ، والتى نرى فيها الصعلوك يسبق الريح بسرعته الفائقة :

وَيَسْبِقُ وَفْدَ الريحِ مِن حيثُ يَنْتَحى بمُنْخَرِقٍ من شَدِّهِ المُتَدَارِكِ[3]

بل إن الأمر ليصل بحاجز الأزدى إلى أن يفدِّى رجليه بأمه وخالته ، وماذا أفاد من أمه وخالته سوى تلك الحياة القاسية المحتقرة التى جرَّتاها عليه بلونهما الأسود ؟ أما رجلاه فهما كل شيء فى حياته ، ولولاهما لفقد الحياة

---

(١) ديوان الهذليين ١٤٨/٢ . والأغانى ٥٦/٢١ ، ٥٧ . وحماسة الخالديين (مخطوطة) ورقة رقم ٢٥ – قاظت : أقامت .

(٢) القالى : الذوادر / ٢٠٥ – القرب : طلب الماء ليلا . الأحناء : الجوانب . تتصلصل : تصوت . الفارط : المتقدم . العقر : مقام الساقى من الحوض .

(٣) حماسة أبى تمام ٤٨/١ – المنخرق : السريع . المتدارك : المتلاحق .

نفسها ، وإذا كانت أمه وخالته سبب ما يلاقيه فى حياته فإن رجليه سبب إنقاذه مما يلاقيه فيها :

فدًى لكما رِجلىَّ أمى وخالتى بسعيكما بين الصَّفا والأثائبِ[1]

وعلى ما فى أحاديث هذا العدو فى أخبار الصعاليك وشعرهم من مبالغات يقف المرء عندها متسائلا : أيمكن أن يكون هذا صحيحاً ؟ فإنها — على كل حال — تصور ظاهرة لاشك فى حقيقتها المجردة ، وهى أن هؤلاء الصعاليك كانوا يمتازون بسرعة فى العدو خارقة للعادة ، وهى سرعة لفتت أنظار الرواة فسجلوها بما فيها من مبالغات ، واستقرت فى أذهان الناس فضربوا بها الأمثال ، ووجد فيها بعض الشعراء المتأخرين مادة يستغلونها فى فنهم ، ويستخدمونها فى تشبيهاتهم وصورهم الفنية[2] .

وينظر هؤلاء الصعاليك الأقوياء إلى المجتمع الذى يعيشون فيه ، فإذا هو مجتمع ظالم ، وإذا توزيع الثروة فيه توزيع جائر مضطرب . إنه مجتمع لا يؤمن إلا بالمال ، ولكنه — مع ذلك — لا يحسن توزيع المال بين أفراده ، فليس من العدل أن يكون لأحد أفراده عدد ضخم من الإبل فى حين لا يملك الآخر غير حبل يجرره لا بعير فيه ، وما هذه الإبل التى يملكها هذا الفرد سوى إبل الله خلقها للناس جميعاً ، فهى ليست حقًّا له وحده دون غيره من خلق الله فى هذه الأرض[3] .

والعجيب من أمر هذا المجتمع أن بين من يعطيهم بغير حساب بخلاء

---

(١) الأغانى ١٢/٥٢ (بولاق) — وحاجز من أغربة العرب سرى إليه السواد من أمه (تاج العروس ، مادة « غرب ») والأثائب : شجر ينبت فى بطون الأودية .

(٢) انظر على سبيل المثال : وصف جران العود للقوادة (ابن قتيبة : الشعر والشعراء /٤٥٢) ، ووصف البحترى للمفازة (ديوانه / ٧٣) ، ووصف ابن الرومى لشهر الصيام (ديوانه ١/٧٧) .

(٣) وإنى لأستحيى لنفسى أن أرى أمر بحبل ليس فيه بعير
وأن أسأل العبد اللئيم بعيره وبعران ربى فى البلاد كثير
(الأحيمر السعدى فى الشعر والشعراء / ٤٩٥) .

أشحاء لا ينتفع بمالهم أحد ، فى حين يَحْرِم فيمن يحرم كرماء لو أعطاهم لنفعوا بمالهم أفراد مجتمعهم الفقراء المحتاجين ، فهو يحرم هؤلاء الكرماء ما يكنزه أولئك البخلاء، ويحرمهم نتيجة لهذا فرصة التكافؤ الاجتماعى ومساواة إخوانهم فى الإنسانية من الأغنياء الكرماء فى شراء تلك الأحاديث الخالدة التى « تبقى والفتى غيرُ خالد إذا هو أمسى هامةً فوق صَيِّر » كما كان يقول عروة .

ووقف هؤلاء الصعاليك أمام هذه المشكلة الخطيرة ، ولم يجدوا أمامهم — بسبب ظروف البيئة والمجتمع والمزاج الشخصى — من وسيلة يرضونها لأنفسهم إلا الاعتماد على القوة يغتصبون عن طريقها ما آمنوا بأنه حقهم المسلوب ، « والخَلَّة تدعو إلى السَّلَّة » — كما يقول المثل العربى[1]، فمضوا خلف أولئك الأغنياء المترفين ، وبخاصة البخلاء منهم ، وتربصوا بالقوافل التجارية التى تسيل بها شعاب الجزيرة العربية ، ينهبون ويسلبون ، ولا يتورعون عن قتل من يعترض طريقهم ، لأن المسألة أخذت فى أذهانهم وضعاً ثنائيًّا لا ثالث له : إما حياة كريمة ، وإما ميتة كريمة ، أما أنصاف الحلول فشىء لا يؤمنون به . لقد آمن هؤلاء الصعاليك بأن « الحق للقوة » ، وأن الضعيف ضائعٌ حقه فى هذه الحياة ، ورأوا أمامهم أولئك الصعاليك الفقراء المستضعفين وما يلاقونه من ذل وضيم وهوان ، فرثوا لهم ، وآلوا على أنفسهم أن يثأروا لهم ممن استضعفوهم ، وأن يفرضوا أنفسهم فرضاً على ذلك المجتمع الذى أذل إخوانهم الضعفاء .

هكذا رسم هؤلاء الصعاليك الأقوياء النفس والجسد خطتهم من أجل الحياة أولا ، ثم من أجل فرض أنفسهم على مجتمعهم الذى لا يعترف بهم ، وتحقيق صورة من صور العدالة الاجتماعية بين طبقات هذا المجتمع بعد ذلك ، وهى خطة تقوم على أساس « الغزو والإغارة للسلب والنهب » .

وأحاديثُ « الغزو والإغارة للسلب والنهب » تنتشر فى أخبار هؤلاء الصعاليك وشعرهم انتشاراً واسعاً ، بل لعلها أكثر ما ينتشر فى أخبارهم وشعرهم

---

(١) انظر القاموس المحيط ، مادة (خلل) .

من أحاديث ، حتى لتوشك أن تكون هى اللون البارز فى لوحة حياتهم الاجتماعية والفنية .

فى أخبار السليك أنه « أملق حتى لم يبق له شىء ، فخرج على رجليه رجاء أن يصيب غرة من بعض من يمر به فيذهب بإبله ، حتى أمسى فى ليلة من ليالى الشتاء باردة مقمرة . فاشتمل الصَّماء ، ثم نام . . . فبينما هو نائم إذ جثم رجل فقعد على جنبه فقال : استأسر » ، وسأله السليك من يكون ، فقال له : « أنا رجل افتقرت ، فقلت لأخرجنَّ فلا أرجع إلى أهلى حتى أستغنى ، فآتيهم وأنا غنى » ، فقال له السليك : انطلق معى ، « فانطلقا معاً ، فوجدا رجلا قصته مثل قصتهما ، فاصطحبوا جميعاً ، حتى أتوا الجوف ، جوف مراد ، فلما أشرفوا عليه إذا فيه نَعَمٌ قد ملأكل شىء من كثرته ، فهابوا أن يغيروا » ، ولكن السليك دبر لهم حيلة « فأطردوا الإبل ، فذهبوا بها ، ولم يبلغ الصَّريخُ الحى حتى فاتوهم بالإبل »[1] .

إنها قصة تصور لنا تلك الهوة الواسعة بين الطبقات فى المجتمع الجاهلى : بين أولئك الذين « أملقوا حتى لم يبق لهم شىء » ، وأولئك الذين أترفوا حتى « ملأ نَعَمهم كل شىء من كثرته » ، وهى هوة كانت تدفع هؤلاء الصعاليك المعدمين للخروج إلى الصحراء من أجل اغتصاب رزقهم من أيدى أولئك المترفين ، وانتزاع لقمة العيش من بين أنيابهم ، أو — بعبارة أخرى — كانت تدفعهم إلى « الغزو والإغارة للسلب والنهب » .

وفى أخبار تأبط شرًّا أنه خرج فى « عدة من فهم » يريدون الغارة على أحد أحياء بجيلة . وتمت الغارة بقتل نفر من بجيلة ، ونهب إبل لهم . وساق الصعاليك الإبل حتى إذا كانوا « على يوم وليلة من بلادهم » تصدت لهم خثعم طامعة فيما معهم ، ودار قتال بين الفريقين : صعاليك فهم العائدين بغنيمتهم ، ورجال خثعم الطامعين فيها . وثبت الصعاليك — على قلتهم وكثرة خثعم — وانتهى

---

(١) الأغانى ١٨/١٣٤ ، وابن قتيبة : الشعر والشعراء / ٢١٤ — ٢١٥ مع اختلاف يسير فى ألفاظ القصة .

الصراع بانهزام خثعم وتفرقها ، وانطلاق الصعاليك بغنيمتهم[١] .

فى هذه القصة نرى صورة من حياة الصعاليك فى المجتمع الجاهلى ، تلك الحياة التى كانت تقوم على « الغزو والإغارة للسلب والنهب » ، ومثلا قويًّا لذلك الصراع الدامى الذى كان الصعاليك يخوضون غماره فى سبيل الحياة ، وهو صراع كانوا يخوضون غماره فى شجاعة وقوة لأنهم كانوا يتمثلونه صراعاً بين الحياة والموت .

وفى أخبار عروة أنه كان — إذا أصابت الناس سنة شديدة — يجمع المرضى والضعفاء والمسنين من عشيرته ، « ثم يحفر لهم الأسراب ، ويكنف عليهم الكُنُف ، ويكسبهم ، ومن قوى منهم إما مريض يبرأ من مرضه ، أو ضعيف تثوب قوته ، خرج به معه فأغار ، وجعل لأصحابه الباقين فى ذلك نصيباً . حتى إذا أخصب الناس وألبنوا وذهبت السنة ألحق كل إنسان بأهله ، وقسم له نصيبه من غنيمة إن كانوا غنموها ، فربما أتى الإنسان منهم أهله وقد استغنى »[٢] .

وفى أخباره أيضاً أنه « بلغه عن رجل من بنى كنانة بن خزيمة أنه أبخل الناس وأكثرهم مالا ، فبعث عليه عيوناً فأتوه بخبره ، فشد على إبله فاستاقها ، ثم قسمها فى قومه »[٣] .

على هذا النحو كانت الصعلكة عند عروة نزعة إنسانية نبيلة ، وضريبة يدفعها القوى للضعيف ، والغنى للفقير ، وفكرة اشتراكية تشرك الفقراء فى مال الأغنياء ، وتجعل لهم فيه نصيباً ، بل حقًّا يغتصبونه إن لم يُؤدَّ لهم ، وتهدف إلى تحقيق لون من ألوان العدالة الاجتماعية ، والتوازن الاقتصادى بين طبقتى المجتمع المتباعدتين : طبقة الأغنياء ، وطبقة الفقراء ، « فالغزو والإغارة للسلب والنهب » لم يعد عنده وسيلة وغاية ، وإنما أصبح وسيلة غايتها تحقيق نزعته الإنسانية وفكرته الاشتراكية .

---

(١) الأغانى ١٨/٢١٥ — ٢١٦ .
(٢) الأغانى ٣/٧٨ — ٧٩ ، والتبريزى : شرح حماسة أبى تمام ٢/٩ .
(٣) ابن السكيت : شرح ديوان عروة / ١٨١ .

وقد يحدث أن تتطور هذه الأهداف الاجتماعية والاقتصادية عند بعض الصعاليك إلى لون من التمرد الخالص الذى لا يميز بين الأهداف ، فإذا هم يتعرضون لكل من يسوقه حظه السيئ إلى مناطق تربصهم. يقول تأبط شرًا معبرا عن هذا التمرد الخالص الذى أصبح عنده الوسيلة والغاية معاً :

ولست أبيتُ الدهرَ إلا على فتى أسلِّبه أو أذعرُ السرْبَ أجمعا[1]

أو يناصبون قبائل معينة العَداء ، يصبون عليها شرورهم ، ويوجهون إليها غاراتهم وغزواتهم ، كما كان يفعل تأبط شرًا مع تلك المجموعة من القبائل التى يعددها فى بعض أبياته[2] ، وكما كان بين صعاليك هُذَيْل وصعاليك فَهْم من عداوة مستحكمة لا يهدأ أوارها ، ظهرت آثارها فى شعر الفريقين وأخبارهما[3] .

وفى شعر الصعاليك صور كثيرة متعددة الألوان والأوضاع لهذه الغارات ، وأحاديث عنها لا تكاد تنتهى حتى تبدأ ، وفى أكثر قصائد هذا الشعر ومقطوعاته يردد الصعاليك أقاصيص هذه الغارات فى فخر وإعجاب ، واعتداد بأنفسهم وبطولتهم . وفى تائية الشنفرى المفضّلية صورة رائعة لغارة قام بها هو وأصحابه الصعاليك ، يصف فيها كيف أعدّ عصابته للغزو ، ويصف الطريق الذى سلكوه ، ويتحدث عن الدوافع التى دفعته إلى هذه الغارة ، ثم يتحدث عن الأهداف التى حققتها ، والغايات التى وصلت إليها . يقول :

وباضعةٍ حمر القسىِّ بعثتها ومنْ يغزُ يَغْنَمْ مرة ويُشَمَّت
خرجنا منَ الوادى الذى بين مِشْعَل وبين الجبا. هيهاتَ أنشأتُ سُرْبَتى
أمشِّى على الأرض التى لن تضرنى لأنكىَ قوماً أو ألاقَ حُمَّتى
أمشى على أين الغزَاة وبُعْدها يقرِّبنى منها رَوَاحى وغُدْوَتى

ثم يقول :

قتلنا قتيلا مُهْدياً بمُلَبد جمارَ منى وَسطَ الحجيج المصوِّت

---

(١) الأغانى ١٨/٢١٧ .
(٢) المصدر السابق / ٢١٨ .
(٣) انظر على سبيل المثال شرح أشعار الهذليين ١/٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٤٣ ، ٢٤٥ .

جزينا سلامانَ بن مُفْرِجَ قرضها ... بما قدمتْ أيديهمُ وأَزَلَّت

وُهنئَ بي قومٌ وما إنْ هنأتهمْ ... وأصبحتُ في قوم وليسوا بمنبتي

شفينا بعبد الله بعضَ غليلنا ... وعوف لدى المَعْدَى أوانَ استهلت[1]

وفى لامية العرب قصة غارة مفاجئة خاطفة قام بها الصعلوك فى ليلة باردة ذات ظلام ومطر ، وقد استبد به الجوع والبرد والخوف ، ثم عاد إلى « قواعده » سالماً ، بعد أن حقق أهدافه ، مخلفاً وراءه القوم يتساءلون : ما هذا الذى طرق حيهم ليلا ؟ وقد ذهبت آراؤهم فيه مذاهب شتى :

وليلة نحس يصْطلى القوسَ ربُّها ... وأقطُعَه اللاتى بها يَتَنَبَّلُ

دَعستُ على غَطْش وبَغْش ،وصحبتى ... سُعَارٌ وإرْزيزٌ ووَجرٌ وأَفكلُ

فأَيمتُ نسوانًا ، وأيتمت إلْدَةً ... وعدتُ كما أبدأتُ ، والليلُ أليلُ

وأصبح عنى بالغُميصَاءِ جالساً ... فريقان : مسئولٌ وآخرُ يَسْأَل

فقالوا : لقد هرَّتْ بليل كلابنا ... فقلنا أذئبٌ عَسَّ أم عس فُرْعُلُ

فلم تك إلا نبأةٌ ثم هوَّمتْ ... فقلنا قطاةٌ ريعَ أم ريع أَجْدَلُ

فإن يكُ منْ جن لأَبرَحُ طارقاً ... وإن يك إنساً ماكها الإنس تفعل[2]

---

(١) المفضليات / ٢٠٢ — ٢٠٣ ، ٢٠٥ — ٢٠٦ ، وانظر أيضاً الأغانى ١/١٣٩٢ — ١٤٠ . الباضعة : القاطعة ، ويريد بها أصحابه الصعاليك . بعثتها : أى غزوت بهم . حمر القسى : أى أنهم غزوا مرة بعد مرة فاحمرت قسيهم للشمس والمطر . والقسى تحمر على القدم . السربة : الجماعة ، وقوله « أنشأت سربتى » أى أظهرتهم من مكان بعيد ، يصف بعد مذهبه فى الأرض طلباً للغنيمة . وقوله « لن تضرنى » أى لن أخاف بها أحداً . وقوله « لأنكى قوماً » من النكاية . الحمة : المنية . وقوله « على أين الغزاة» أى على ما يصيبنى من تعبها ، وأنا مع ذلك أمشى . الملبد : المحرم الذى يأخذ صمغاً فيلبد به شعره لئلا يشعث فى مدة الإحرام . وقوله « جمار منى » أى عند الجمار . سلامان بن مفرج من قومه وهم الذين قتلوا أباه . وقوله « وهنئ بى قوم وما إن هنأتهم » أى هنىء بى قوم وما انتفعوا بى . عبد الله وعوف من بنى سلامان . وقوله « استهلت» أى الحرب إذا ارتفعت الأصوات فيها .

(٢) أعجب العجب / ٥٩ — ٦٤ . والقالى : النوادر ٢٠٦ .

ليلة النحس : المراد بها هنا الليلة الباردة . والأقطع: جمع قطع وهو السهم . ويتنبل أى=

وكان الصعاليك يخرجون لهذه الغارات الرهيبة فرادى أحياناً ، وفى عصابات أحياناً أخرى . وكان أكثرهم يغير على رجليه ، وبعضهم يغير على الخيل .

فنى أخبار الشنفرى أنه كان « يغير على الأزد على رجليه فيمن معه من فهم ، وكان يغير عليهم وحده أكثر ذلك »[١] . ومن أخباره أيضاً أنه خرج « فى ثلاثين رجلا ومعه تأبط شرًّا يريدون الغارة على بنى سَلاَمان »[٢] . وفى أخبار السليك أنه خرج « على رجليه رجاء أن يصيب غرة من بعض منْ يمر به فيذهب بإبله » ، وأنه التقى برجلين قصتهما مثل قصته « فاصطحبوا جميعاً »[٣] . وفى أخبار تأبط شرًّا أنه خرج « فى عدة من فهم »[٤] . وفى شعره حديث عن غزواته هو وصعاليكه على الخيل أحياناً ، وعلى الأرجل أحياناً أخرى :

فيوماً بغُزَّاءٍ ، ويوماً بسُرْبَةٍ ويوماً بخشخاشٍ من الرَّجْل هَيْضَلِ[٥]

وفى شعر عروة أحاديث كثيرة عن هذين الأسلوبين من أساليب الغزو . يقول متحدثاً عن امرأته التى تلومه على مخاطرته بنفسه فى غاراته المتكررة تارة بأولئك الرَّجَلِيِّين الذين يعتمدون فى غزوهم على أرجلهم ، وتارة بأولئك الفرسان الذين يغيرون على الخيل :

تقول : لك الويلات ، هل أنت تاركٌ ضُبوءًا برَجْلٍ تارة وبمنسرِ[٦]

= يرمى بها . والدعس : شدة الوطء . والغطش : الظلمة . والبغش : المطر الخفيف . والسعار : شدة الجوع . والإرزيز : البرد . والوجر : الخوف . والإفكل : الرعدة . والإلدة : الأولاد . والغميصاء : اسم موضع بنجد . والعس : الطواف بالليل . والفرعل : ولد الضبع . والنبأة : الصوت . وهومت : نامت . والأجدل : الصقر . وأبرح : من البرح وهو الشدة .

(١) الأغانى ٢١/١٣٥ .

(٢) ابن الأنبارى : شرح المفضليات / ١٩٥ .

(٣) الأغانى ١٨/١٣٤ .

(٤) المصدر السابق / ٢١٥ .

(٥) لسان العرب : مادة (غزا) — السربة : جماعة الخيل ما بين العشرين إلى الثلاثين . والخشخاش : الجماعة فى سلاح ودروع . والهيضل : الجماعة المتسلحة . والرجل : الرجالة .

(٦) ديوانه / ٦٨ ، والأصمعيات ١/٢٩ ، وشرح التبريزى على حماسة أبى تمام ١/٦١ — ضبأ : اختبأ واستتر ليختل . والمنسر كمجلس ومنبر : جماعة الخيل .

ويقول متحدثاً عن اعتماده على كلا الأسلوبين فى بعض غاراته :

لعل انطلاقى فى البلاد ، ورحلتى ... وشدى حيازيمَ المطية بالرَّحْل
سيدفعنى يوماً إلى رَبِ هَجْمَة ... يدافعُ عنها بالعقوق وبالبخل
قليلٌ تواليها وطالب وِترها ... إذا صحتُ فيها بالفوارس والرَّجْل[1]

وقد وفر الصعاليك لهذه الغارات كل ما يحقق لها النجاح ، وبلوغ الغاية ، وإدراك الهدف . فإلى جانب ما وفروه لها من قوة الجسد ، وشجاعة القلب ، وصدق العزيمة ، وسرعة العدو ، وفروا لها سعة الحيلة ، وعمق الدهاء ، والقدرة على الخلاص من المآزق الضيقة ، والمواقف الحرجة . ففى أخبار الشنفرى أنه كان إذا سار فى الليل نزع نعلا ولبس نعلا ، وضرب برجله ، حتى يموِّه على الناس ، فيظنوه الضبع[2] . وفى أخباره أيضاً أنه أقبل فى ليلة على ماء لبنى سلامان ، فلما دنا من الماء قال : إنى أراكم ، وليس يرى أحداً ، إنما يريد بذلك أن يخرج رَصَداً إن كان ثمة من يترصد له[3] . وفى أخبار السليك أنه احتال على رجل فى سوق عكاظ حتى عرف منه منازل قومه ، تمهيداً للإغارة عليها[4] . وخبر الحيلة التى لجأ إليها تأبط شرًّا ، حين حاصرته لحيان وهو يشتار العسل من غار فى بلادهم ، خبر ذائع مشهور[5] . وقصة احتياله هو والشنفرى وابن براقة على بجيلة حين أسرته ، حتى نجا ونجا معه صاحباه ، وهى القصة التى أشار إليها فى قافيته المفضّلية ، قصة مشهورة أيضاً[6] .

وإلى جانب هذا كله كان طبيعيًّا أن يوفر الصعاليك لغاراتهم السلاح الذى

---

(١) ديوانه / ١٠٨ – ١١١ . وشرح التبريزى على حماسة أبى تمام ٢/٩ .
(٢) ابن الأنبارى : شرح المفضليات / ١٩٧ ، والأغانى ٢١/١٣٧ ، وابن حبيب : كتاب المغتالين (مصورة) لوحة رقم ٩٣ .
(٣) الأغانى ٢١/١٤٣ .
(٤) الأغانى ١٨/١٣٥ – ١٣٦ .
(٥) انظر التبريزى : شرح ديوان الحماسة ١/٣٨ وما بعدها ، والأغانى ١٨/٢١٥ ، والبغدادى : خزانة الأدب ٣/٣٥٧ ، وابن حبيب : المحبر / ١٩٦ – ١٩٨ .
(٦) انظر ابن الأنبارى : شرح المفضليات / ٦ – ٧ ، والأغانى ١٨/٢١١ – ٢١٢ .

يعتمدون عليه فى هجومهم ودفاعهم ، لأن الشجاعة أو القوة أو غيرهما من الصفات التى كانوا يمتازون بها لا تكفى وحدها « فى تلك البادية الفوضوية التى لا يستطيع إنسان أن يعيش فيها ما لم يكن مزوداً بسيف أو قوس »[١] . والواقع أن الصعاليك أعدوا لغاراتهم كل ما كانت تعرفه الجزيرة العربية من سلاح ، سواء منه ما كان للهجوم وما كان للدفاع ، ووصفوا فى شعرهم كل ما كانوا يستخدمونه منه ، وتحدثوا عن قيمته لهم فى غزواتهم ، بل فى حياتهم كلها ، فقد كانوا يرون فيه أهم شىء فى حياتهم ، وأغلى ما يملكون فيها ، وما يخلفونه بعدها ، فعمرو بن براقة يذكر أن سيفه هو « جُلُّ ماله »[٢] ، وعروة يذكر أنه لن يخلف بعد موته سوى سيف ورمح ودرع ومغفر وجواد :

وذى أملٍ يرجو تراثى ، وإن ما   يصيرُ له منه غدًا لقليلُ
ومالىَ مالٌ غير درع ، ومِغفرٌ[٣]   وأبيض من ماء الحديد صقيلُ
وأسمرُ خطىٌّ القنـــاة مثقف   وأجردُ عريانُ السراة طويلُ[٤]

هذا كل ما يملكه أبو الصعاليك ، وكل ما سيخلفه من بعده لوارثيه ، وهذا كل ما يسجله فى « وصيته » من « ثروته » . وقد بلغ من شدة حرص صَخر الغَىّ الصعلوك على سلاحه أنه كان يراه ثياباً له لا يخلعها عن جسده[٥] ، ويذكر الرواة أن تأبط شرًّا « كان لا يفارقه السيف »[٦] .

وقد استتبعت هذه الحياة الواقفة فى وجه المجتمع ، المتمردة عليه ، الخارجة على نظمه ، أن فقد المجتمع اطمئنانه إلى أصحابها ، كما فقد أصحابها طمأنينتهم فيه ، فانقطعت الصلة بينهما ، وانفصمت تلك الرابطة الاجتماعية التى تربط بين الفرد ومجتمعه ، وانحل ذلك العقد الاجتماعى الذى يجعل من الفرد عضواً

---

(١) Dermenghem; The Life of Mahomet, p. 173.
(٢) انظر أبياته الميمية فى الأغانى ٢١/١٧٥ .
(٣) معطوف على محل « درع » ، لأن المعنى « ليس لى إلا درع ومغفر » .
(٤) ديوانه / ٢٠٧ .
(٥) انظر قصيدته الدالية فى السكرى : شرح أشعار الهذليين ١/١٣ .
(٦) الجوهرى : صحاح اللغة ، مادة (أبط) .

عاملا لمجتمعه ، متوافقاً معه ، دائراً فى فلكه ، ورأى المجتمع فى هؤلاء الصعاليك « شذّاذاً » خارجين عليه ، غير متوافقين معه ، ، فتنكر لهم ، وتخلى عنهم ، وتركهم يواجهون الحياة دون أية حماية منه أو ضمان اجتماعى ، ورأوا هم فى مجتمعهم مجتمعاً مختلا ، يسيطر عليه ظلم اجتماعى ، وتسوده أنانية اقتصادية جائرة ، وتنقصه عدالة اجتماعية تسوّى بين جميع أفراده ، وتكافؤ فى فرص العيش يهيئ لكل فرد فيه أن يأخذ بنصيبه من الحياة كما يأخذ سائر الأفراد .

وكانت النتيجة الطبيعية لهذا كله أن فرّ هؤلاء الصعاليك من مجتمعهم النظامىّ ليقيموا لأنفسهم بأنفسهم « مجتمعاً » فوضوياً ، شريعته « القوة » ، ووسيلته « الغزو والإغارة » ، وهدفه « السلب والنهب » ، ووجدوا فى الصحراء الفسيحة الواسعة التى لا تقيدها قيود ، ولا تحد من حريتها حدود ، ولا يستطيع قانون أن يخترق نطاقها ليفرض سلطانه عليها ، مجالا لا حدود له يمارسون فيه نشاطهم الإرهابى ، ويقيمون « دولتهم » الفوضوية ، « دولة الصعاليك » ، حيث يحيون حياة حرة متمردة ، تسودها العدالة الاجتماعية ، وتتكافأ فيها فرص العيش أمام الجميع .

وأخبار هؤلاء الصعاليك وأشعارهم تحفل بأحاديث هذا التشرد فى أنحاء الصحراء الموحشة ، ووديانها الرهيبة ، حيث يحيا الوحش بعيداً عن البشر ، وحيث يكمن الموت فى كل رجء من أرجائها .

ولعل أقوى ما صُور به هذا التشرد فى شعر الصعاليك هاتان الصورتان المتشابهتان اللتان نجد إحداهما عند تأبط شرًّا ، والأخرى فى لامية العرب ، فكلا الصعلوكين مفارق مجتمعه النظامى حيث يعيش البشر ، إلى أعماق الصحراء البعيدة حيث يعيش الوحش ، أما تأبط شرًّا فقد ألفته الوحش لطول ما عاش بينها مسالماً لها ، حتى أنست به ، واطمأنت إليه ، وأما صعلوك اللامية فقد وجد فى ضوارى الصحراء أهلا له ، يستعيض بها عن أهله من البشر ، ويجد بينها الأمن والطمأنينة . يقول تأبط شرًّا متحدثاً عن نفسه :

يبيت بمغنى الوَحش حتى ألفنهُ ويصبح لا يَحْمِى لها الدهرَ مرْتعا

رأين فتًى لا صيد وحش بهمـــه فلو صافحتْ إنسًا لصافحنهُ معا[١]

ويقول صاحب اللامية مخاطباً أهله :

ولى دونكمْ أهلونَ : سِيدٌ عَمَلَّسٌ وأَرْقطُ زهلولٌ ، وعرْفاءُ جَيْأَلُ

همُ الأَهل ، لا مستودَعُ السر ذائع لديهمْ ،ولا الجانى بما جَرَّ يُخذلُ[٢]

ومن الطبيعى أن هذا التشرد جعل الصعاليك على صلة قريبة بحيوان الصحراء ، استطاعوا عن طريقها أن يعرفوا طباعه وعاداته ، وأن يتحدثوا عنه وعنها حديث الخبير المطلع . وفى شعرهم صور كثيرة لحيوان الصحراء ووحشها وطيرها وحشراتها وما يخيل للسارى فيها من أشباح ، كذلك الوصف الدقيق للضباع وحياتها وطباعها فى شعر الأعلم الهذلى[٣] ، وكتلك الصورة الرائعة للذئاب الجائعة فى لامية العرب[٤] ، وكتلك الصور المتعددة للغيلان وما يجرى للإنسان معها فى شعر تأبط شرا[٥] .

وكان من نتيجة هذا التشرد البعيد فى أعماق الصحراء أن أصبح الصعاليك على علم واسع بأسرارها ، ومعرفة دقيقة بشعابها ودروبها ومسالكها ومياهها ، ومقدرة فائقة على الاهتداء فى مجاهلها ، واختراق متاهاتها المضلة دون دليل . ورواة الأدب العربى يصفون السليك « البعيد الغارة » بأنه « كان أدل من قطاة »[٦] ، بل إنهم يصفون الصعاليك جميعاً بأنهم « أهدى من القطا »[٧] .

---

(١) الأغانى ١٨/٢١٧ – وقوله « ويصبح لا يحمى لها الدهر مرتعاً » معناه أنه لا يمنعها من الرعى فهى لا تخاف منه .

(٢) أعجب العجب / ١٧ ، ١٨ – السيد : الذئب . والعملس : القوى على السير السريع . والأرقط المراد به النمر . والزهلول : الأملس . والعرفاء : الضبع الطويلة العرف . وجيأل : اسم للضبع ، معرفة بدون الألف واللام ، وهى فى الأصل صفة ثم غلبت فخرجت مخرج الأسماء ، وهى لهذا ممنوعة من الصرف للعلمية والتأنيث .

(٣) انظر ديوان الهذليين ٢/٧٩ ، ٨٠ ، ٨٦ ، ٨٧ .

(٤) انظر أعجب العجب / ٣٧ – ٥٠ .

(٥) انظر الأغانى ١٨/٢٠٩ ، ٢١٠ - وابن قتيبة : الشعر والشعراء / ١٧٦ ، ١٧٧ .

(٦) الأغانى ١٨/١٣٤ .

(٧) المرزبانى : معجم الشعراء / ١٦٨ .

وفى شعر الصعاليك أحاديث كثيرة عن الصحراء ، وفخر عريض بمعرفة أسرارها ، والاهتداء فى مجاهلها ، كما نرى فى تلك الأبيات الرائية التى يرويها الأصمعى لتأبط شرا ، والتى يتحدث فيها عن اهتدائه إلى شِعب فى أعماق الصحراء المجهولة بصعاليكه دون أن يهديه إليه دليل أو يصفه له خبير (١) ، وكما نرى فى هذه الأبيات القوية من لامية العرب :

وخِرْق كظهر الترْس قفر قطعته ... بعاملتين ، ظهرهُ ليس يُعمَلُ
وألحقتُ أولاه بأُخراه موفيا ... على قنة أُقْعِى مرارًا وأَمْثُلُ
ترُودُ الأَرَاوِى الصُّحْمُ حولى كأَنها ... عذارى عليهن الملاء المذيَّل
ويَركُدْنَ بالآصال حولى كأَننى ... من العصْم أَدْفى يَنتحى الكِيحَ أَعقَلُ (٢)

فالشاعر فى هذه الأبيات يصف الصعلوك بأنه يخترق الصحراء النائية الخالية التى لا يطرقها أحد ، معتمداً فى اختراقها على رجليه القويتين السريعتين ، حتى يصل إلى منازل الوعول البعيدة التى لم تعد تنكره ، لكثرة ما خالطها ، حتى كأنه واحد منها .

والناظر فى أخبار هؤلاء الصعاليك ، المتتبع لظروف نشأتهم وحياتهم ، يستطيع أن يلاحظ فى وضوح ثلاث طوائف مختلفة تتألف منها عصاباتهم :

طائفة « الخلعاء والشُّذَّاذ » الذين أنكرتهم قبائلهم ، وتبرأت منهم ، وطردتهم من حماها ، وقطعت ما بينها وبينهم من صلة ، وتحللت بهذا من العقد الاجتماعى الذى يربط بينها وبينهم ، والذى يصوره المثل العربى القديم « فى الجريرة تشترك العشيرة » (٣) ، فأصبحت لا تحتمل لهم جريرة ، ولا تطالب

---

(١) انظر الأصمعيات ١/٣٥ .

(٢) أعجب العجب / ٦٧ — ٦٩ — الخرق : الأرض الواسعة تنخرق فيها الرياح . والعاملتان : رجلاه . وظهره ليس يعمل أى ليس مما تعمل فيه الركاب . وموفياً أى مشرفاً . والقنة : أعلى الجبل . وأمثل : أقف وأقوم . والأراوى : إناث الوعول . والصحم : السود التى يضرب لونها إلى صفرة . ويركدن أى يثبتن . والعصم : الوعول التى فى أيديها بياض . والأدفى من الوعول : الذى طال قرنه طولا شديداً . والكيح : عرض الجبل . والأعقل : الممتنع فى الجبل العالى .

(٣) الميدانى : مجمع الأمثال ٢/١٧ .

بجريرة يجرها أحد عليهم ، مثل حاجز الأزدى[١] ، وقيس بن الحدادية[٢] ، وأبى الطَّمَحَان القينى[٣] .

وطائفة « الأغربة » السود الذين سرى إليهم السواد من أمهاتهم الإماء ، فلم يعترف بهم آباؤهم العرب ، ولم ينسبوهم إليهم ، لأن دماءهم ليست عربية خالصة ، وإنما خالطتها دماء أجنبية سوداء لا تصل من درجة نقائها إلى درجة الدم العربى ، مثل تأبط شرا[٤] ، والشنفرى[٥] ، والسليك بن السلكة[٦] .

ثم طائفة الفقراء المتمردين الذين تصعلكوا نتيجة لتلك الظروف الاقتصادية المختلة التى كانت تسود المجتمع الجاهلى ، ويمثلهم عروة بن الورد ومن كان يلتف حوله من فقراء العرب ، وكذلك تلك المجموعة الكبيرة من صعاليك هذيل .

من هذه الطوائف الثلاث تألفت عصابات الصعاليك ، وهى عصابات قطعت ما بينها وبين قبائلها من صلات ، وانطلقت إلى الصحراء ، كما تنطلق الذئاب الجائعة ، لتشق لنفسها طريقاً فى الحياة ، وقد جمع بينها — على اختلاف قبائلها — الفقر ، والتشرد ، والتمرد ، والكفر بالأوضاع الاجتماعية والاقتصادية التى يؤمن بها المجتمع الذى خرجت عليه ، والإيمان بأن الحق للقوة ، وأن الضعيف ضائع حقه فى هذا المجتمع .

والظاهرة الواضحة فى حياة هؤلاء الصعاليك — على اختلاف الدوافع التى دفعتهم إلى حياة التصعلك — هى أنهم جميعاً فقدوا توافقهم الاجتماعى . وظاهرة « التوافق الاجتماعى »[٧] هى الظاهرة التى يقرر علماء الاجتماعى أنها الأساس

---

(١) انظر الأغانى ١٢/٤٩ (بولاق) .
(٢) انظر الأغانى ١٣/٢ (بولاق) .
(٣) انظر الأغانى ١١/١٣٠ (بولاق) .
(٤) انظر السيوطى : المزهر ٢/٢٦٩ .
(٥) انظر المصدر السابق / الصفحة نفسها .
(٦) انظر المصدر نفسه / الصفحة نفسها ، وانظر أيضاً ابن قتيبة : الشعر والشعراء / ٢١٤ .
(٧) Social Adjustment

الذى تقوم عليه الصلة بين الفرد والمجتمع ، بحيث يكون عمل الفرد من أجل صالح المجموع ، كما يكون عمل المجموع لصالح الفرد . وفقدان هذا « التوافق الاجتماعى » ينتهى بالفرد عادة إلى أن تكون صلته بمجتمعه قائمة على أساس « السلوك الصراعى »[١] ، وذلك لأن فى كل مجتمع تيارين متضادين : أحدهما يتصل بالفرد ، والآخر يتصل بالمجتمع ، ووجود هذين التيارين يستدعى وجود نوعين من الصلة بين الفرد والمجتمع ، فإما أن يكون بينهما « وفاق » ، وإما أن يكون بينهما « صراع » ، وهذان النوعان من الصلة بين الفرد والمجتمع هما ما اصطلح علماء الاجتماع على تسميتهما « بالسلوك التعاونى »[٢] ، « والسلوك الصراعى »[٣] .

ومن الطبيعى أن تكون الأسباب التى جعلت هذه الطوائف المختلفة من الصعاليك تفقد توافقها الاجتماعى أسباباً مختلفة ، وذلك لاختلاف « المشكلة النفسية » التى تواجهها طائفة منها عن المشكلة التى تواجهها طائفة أخرى . ولكن هذه المشكلات — على اختلافها — كانت تنتهى بطوائف الصعاليك جميعاً إلى هذا « اللاتوافق الاجتماعى » الذى كان يدفعها إلى أن يكون سلوكها الاجتماعى « سلوكاً صراعيًّا » .

* * *

والآن ، بعد هذه الجولة الواسعة خلف أخبار « صعاليك العرب » وأشعارهم ، فى كتب اللغة ، وفى مصادر الأدب العربى ، نقف لنسجل النتيجة التالية :

تدور كلمة « الصعلكة » فى دائرتين : دائرة لغوية ، ودائرة اجتماعية . وتبدأ الدائرتان من نقطة واحدة هى الفقر ، فأما الدائرة اللغوية فتنتهى حيث بدأت ، يبدأ الصعلوك فيها فقيراً ، ويظل فى نطاقها فقيراً ، يخدم الأغنياء

---

(١) Conflict

(٢) Co-operation

(٣) انظر فى تفصيل هذا :

E.R. Groves; Personality and Social Adjustment, & R.M. Mac Iver; Society.

أو يستجديهم فضل مالهم ، ثم يموت فقيراً ، وأما الدائرة الاجتماعية فتتسع وتبعد عن نقطة البدء لتنتهى ، أو لتحاول أن تنتهى ، بعيداً عنها ، يبدأ الصعلوك فيها فقيراً ، ثم يحاول أن يتغلب على الفقر الذى فرضته عليه أوضاع اجتماعية أو ظروف اقتصادية ، وأن يخرج من نطاقه ليتساوى مع سائر أفراد مجتمعه ، ولكنه — من أجل هذه الغاية — لا يسلك السبيل التعاونى ، وإنما يدفعه « لا توافقه الاجتماعى » إلى سلوك السبيل الصراعى ، فيتخذ من « الغزو والإغارة للسلب والنهب » وسيلة يشق بها طريقه فى الحياة ، فيصطدم بمجتمعه الذى يرى فى هذه الفوضوية الفردية مظهراً من مظاهر التمرد . وتنقطع الصلة بين المجتمع والصعلوك ، فيتخلى المجتمع عنه ، ويحرمه حمايته ، ويعيش الصعلوك خليعاً مشرداً ، أو طريداً متمرداً ، حتى يلقى مصرعه ، فأما أعداؤه فقد استراحوا من هذا الفزع الذى كانوا يترقبونه فى كل حين ، كما يترقب غائباً مُتَنَظَّراً أهلُه — على حد تعبير عروة — وأما أصدقاؤه فقد سقط أحدهم فى سبيل فكرته بعد أن أدى رسالته فى هذه الحياة .

وإذا كنا قد وصلنا إلى هذه النتيجة عن طريق استعراض هذه الظاهرة فى مصدرها الأول ، وهو المجتمع الجاهلى ، فإن فى صنيع اللغويين ما يؤيدنا فيما وصلنا إليه ، حيث أشاروا إلى جانب خاص من المادة اللغوية عبروا عنه بصعاليك العرب ، ولنا إذن أن نقول : إن ما عبر عنه اللغويون « بصعاليك العرب » هو ما نعبر عنه « بصعاليك الدائرة الاجتماعية » .

وإذ نلاحظ أن المتصلين بمشكلة الفقر والغنى وتوزيع الثروة فى المجتمع الجاهلى قد أشاروا على ألسنة شعرائهم إلى طائفتين من الصعاليك ، فمدحوا إحداهما « لله هى » ، وذموا الأخرى « لحاها الله »[1] ، نستطيع أن نقول فى ضوء هذه النتيجة التى وصلنا إليها إن هناك نوعين من الصعاليك :

الصعلوك العامل وهو الذى يمثل صعاليك الدائرة الاجتماعية .

والصعلوك الخامل وهو الذى يمثل صعاليك الدائرة اللغوية .

---

(١) انظر رائية عروة فى ديوانه / ٧٣ — ٨٢ ، وميمية حاتم الطائى فى ديوانه / ٢٥ .

فالمسألة إذن ليست مسألة لغوية فحسب ، يُرجع فيها إلى كتب اللغة ، وإنما هى — إلى جانب هذا — ظاهرة اجتماعية يرجع فيها إلى المجتمع الجاهلى ، وما كان ينطوى عليه من عوامل عملت على ظهورها ، والاتجاه بها إلى تلك الاتجاهات التى اتجهت إليها .

ولكن ما هذه العوامل ؟ وما هذه الاتجاهات ؟

هذا ما سنحاول دراسته فى الفصول التالية من هذا الباب .

* * *